الكهف 80

رواية

أحمد حسن

دار الكنزي للنشر والتوزيع

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

الطبعة الثانية
الكتاب : الكهف ٨٠
تأليف : أحمد حسن
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : إسلام مجاهد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٣٢٥١ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6599 - 63 - 5

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

كان من الصعب أن أترك تلك الفرصة دون أن أقوم بأهداء لعدة أشخاص لهم من الفضل والقيمة ما يتخطى كلماتى.

إهداء إلى زوجتى الحبيبة التى تحملت الكثير والكثير معى.

إهداء إلى أمى الحبيبـــة الغالية، وجودك فى الحياة أكبر دعم حصلتُ عليه.

أولادى يا من هم ثمرة تنبـــت أمام عينى، أتمنى أن أكون دائما عند حسن ظنكم.

هناك إهداء خاص

إلى أختى التى لم تلدها أمى «إيناس الدسوقى» التى ظلت تساندنى وتشجعنى، أشكرها لثقتها الغالية.

جمعنا الله دائما على خير.

إهداء إلى العزيز المحترم مالك ومؤسس دار الكنزى «محمد صلاح» شـــكراً لك على دعمك ورهانك علىَّ بهذا الإصدار، صدقا لا يوجد مثلك الآن الكثير!

إهداء أخير، إلى «شـــيماء أحمد» الأخت والصديقة الغالية، لك منى كامل الاحترام والتقدير.

إليك حامل الرواية بين يديك، أهديك كلماتى.

المقدمة

أنت. نعم أنت! الكائن البشرى العاقل المحمل بالأمانة دون كل المخلوقات. هل تساءلت فى يوم ما لماذا وجدت على هذا الكوكب؟ هل خطر فى بالك علامات استفهام حول: لمَ أنا هنا فى هذه القارة؟! فى هذه البلدة؟! فى هذا الحي؟! بل لمَ أنا دون غيرى ولدت فى تلك الأسرة العجيبة؟!

حقا إذا مرت عليك كل هذه التساؤلات فتأكد أنك كائن طبيعى، ومن المصنفين أنهم ذوى صحة نفسية جيدة. انتظر. ليس هذا معناه أنك لست مريضًا. أنت مريض بالفعل لأنك لم تسرح بعقلك لاكتشاف تطورات حياتك فى خيالك الخصب، ماذا ستكون لو كنت فى مجرّة أخرى فى عالم آخر، أو حتى فى حى مجاور لمنزلك. عموما، ليس هذا ما سنطرحه فى الرواية، ولكنى أردت أن أكتب مقدمة كأى كاتب وروائي. فـ عذرًا.

أتمنى أن تستمع بروايتى الأولى التى بين يديك، وسأنتظر رأيك وتقييمك لأول رواية لى.

أحمد حسن

أين أنا؟ ما هذا الزحام؟ ما هذا المكان من هؤلاء؟!

رأســـى يؤلمنى بقوة كذلك جسدى منهك، أشعر كمن ركض مائة ميل دون راحة، ملقى على الأرض لا أعلم لماذا؟! لاأتذكر أى شيء، كذلك لا أعلم من هؤلاء ولا كيف أتيت ولا من أنا، زحام كبير حول مرآة عملاقة ما هذه المرآة الكبيرة التى يقف الكل أمامها منتظرا دوره فى طابور منظم للوقوف أمامها؟! والعجيب أنه مع انعكاســـة صورة أى أحد منهم تأتى بجانبها كهوف مرقمة بمراحل عمره، إنهم يصطفون كمن رسم لهم أحدهم خطا لا يتعدونه ينتظرون أن يصلوا للأمام ليتأملوا أنفسهم داخل تلك العملاقة.

نهضت بصعوبـــة بالغة وخطوت خطواتى باتجاههم. أقف أنتظر دورى لا اعلم لماذا كأنى مبرمج، لكن ســـأفعل مثلهم دون شـــك فليس لـ إرادة أو اختيار.

إن هذا المكان غريب للغاية، يشـــبه ساحة كبيرة بين تلال وجبال فى قطعـــة مهجورة على الأرض، لا منازل، فقط رمال كثيفـــة وثقيلة تغوص قدمـــاك داخلها، حطام لأشـــياء لا أعرفها، أما الأشـــخاص الذين يزدحم المكان بهم يتحركون بشكل منظم فى اتجاهات عدة، كأنهم لايرون بعضهم فتشعر أن كل واحد منهم يمشـــى فى طريق مرسوم له لا يحيد عنه الغريب، إنهم يفعلون هذا وعيونهم مغلقة كأنهم آلة يختفون كلهم فجأة لمدة ثانيـــة أو أكثر، ثم يعودون للظهور لا أدرى أيحدث هذا حقا أم هو بصرى الذى يخذلني؟! أشـــعر الآن أنى

أتحرك مثلهم أحاول الخروج من الطابور فلا أستطيع.

المرآة أمامى كوحش عملاق أو كجبل شاهق ونحن أمامها كفئران صغيرة أمام عمارة شاهقة أنظر لأعلاها أرى نصفها العلوى يعكس نهارا ساطعا. أما النصف السفلى الذى نقف أمامه فهو ليل مظلم لا ترى منه شيئا.

إن الشيء الوحيد الذى يعمل بكفاءة هو عقلى، أما باقى الجسد فلا أشعر به. يقترب دورى للوقوف أمام تلك المرآة العملاقة، لم يتبق سوى واحد فقط، ويحين دورى فى الصف. هاأنا أقف أمامها وتظهر الكهوف فى الصورة المعكوسة لى فيها حول كيانى.

من هذا؟ أرفع يدى لأتحسس وجهى لأتأكد أنه أنا تبًّا!!

أنا حتى لا أعرف نفسى؟!! لا أعرفنى.

تجاعيد وجهى والشيب الذى يغطى رأسى يدل على عجزى.

هل أنا أحلم ؟

مهلا، لا أرى فى تلك المرآة سوى لا شيء خلفى أين الاشخاص والتلال وأين انعكاسهم؟!

أنا فقط وخلفى خلفية بيضاء أخطو للأمام باتجاه المرآة حتى أكاد ألامسها، أقترب أكثر وأكثر، أشعر أنى سأخترقها.

وهذا ما حدث بالفعل، ودخلت أول كهف فى المرآة.

الكهف 60

دلفتُ إلى الغرفـــة، فتحت الدولاب أخذت منه شـــيئا لها ورمقتنـــى بنظرة نارية، ثم خرجت وأغلقت الباب بقوة، كنت أقف أمام تســـريحتى أربط رباطة عنقى و أدندن أغنية لعبد الحليم حافظ أكملت ارتداء ملابســـى وفتحت باب الغرفة وخرجت، وجدتها تصلى، مررت من أمامها وابتســـمت، رفعت عيناها الغارقتان فى الدمـــوع، كانت تبكى بحرارة، لم أتأثر؛ فقد كنت سعيدا للغاية، اتجهت إلى دولاب صغير به درج أضع أغراض الخروج الصغيرة فيـــه مثل المفاتيح ومحفظتى تعلوه صورتهم عليها الشـــريطة الســـوداء، علامة العزاء الشهيرة، ألقيت نظرة لا مبالية على الصور، وتمتمت: حقا يشـــبهوننى كثـــيرا. والتقطت يدى المفاتيح ثم خرجـــت وهبطت الدرج برشـــاقة وحيويـــة، وأدرت محرك الســـيارة وانطلقت إلى مقر شركتى دخلت إلى مكتبى، كانت تنتظرنى قهوتى كالعادة وأمامى على المكتـــب الصحف اليومية، طُـــرق الباب ودلفت مديرة مكتبى الفاتنة منه جاكلين، ابتســـمت وطبعت قبلة علـــى خدى، ولكنى لم أعرها اهتمامـــا، فقد كنت أبحث فى الصحف عن خبر معين، قلت موجها لها حديثى دون أن ألتفت اليها:

– غريبة لم يذكروا الخبر فى الصحف؟!

قالت : هذا خبر الموسم سيتريثون كثيرا قبل إعلانه، فهو لم يكن الشـــخص العادى، فمـــن الطبيعى أن لا يتم الإفصاح فورا عن قتله، ثم لا تنسى أنه صديق مقرب لأحد المسؤولين، وإعلان هذا الأمر الآن سيثير الرأى العام حول القاتل الذى لا يترك أثرا له، فهـــو بلا بصمات، واتبعت جملتها الأخيرة هذه بغمزة وضحكة فنظرت لها وضحكت أيضا، ثم أردفت:

– هكذا سيكون السوق لنا فقط بلا منافس.

قلـــت لها : تعلمين أنه كانت هنـــاك حلول أخرى كثيرة غير القتل، لكنـــى أُفضل الحل الأصعب دوما.

تصنعت جاكلين بعض الدلال وقالت مادحة :

– يعجبنى فيك سيدى أنك بلا مشاعر ولا شيء يوقفك.

قلت لها: ومن يستطيع أن يوقفنى وأنت معى؟!

أرضت هذه الجملة غـــرور أنوثتها قليلا، ثم هتفت : إذا لا تتأخر علىَّ اليوم ســـأنتظرك فى شقتنا.

قلت لها: سأحاول، فأنت تعلمين أن الأمور فى المنزل ليست على ما يرام بعد فقدهم، لكنى سأحاول.

كانت السيدة حسناء تبكى وهى تنظر إلى الصور، دموعها كسيول منهمرة، تتذكر حياتها كلها معه ومعهم، فقد كانت تحيا من أجلهم فقط، أما الآن فلا يمنعها عن الانتحار إلا دينها.

إن ما مرت به فى حياتها معه كان كفيلا بتدميرها، لكن ما حدث فى السنة الأخيرة يعادل ما فات كله وأكثر، ما اكتشفته جعلها فى حالة اكتئاب وحزن، تشعر أنها محتلة من شيطان، بالفعل إنه شيطان، ولا فرق بينه وبين الشيطان، بل قد يتفوق عليه!

راحت حسناء تخاطب نفسها : أيا من كان هو، فقدانهم يعنى نهايتى حتميا لكن ربما ما حدث لهم أراحهم من ما كان سيحدث لهم بعد معرفتهم الحقيقة الكارثية ؛ أعلم أنه ليس لهم ذنب لكن كانوا لن يستطيعوا العيش بالتأكيد بعد اكتشاف الأمر، ارتاحوا هم وتركونى أتعذب بمفردى، لا أستطيع فعل أى شيء، ضعيفة وهشة أقع تحت تأثيره وطغيانه، سأحسم الأمر هذه الليلة: إما أن يطلقنى، وإما تكون هذه آخر ليلة.

أنهى جعفر يومه داخل الشركة وهبط من مكتبه باتجاه سيارته، كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة مساء، أدار

مفتاح محركها، وقبل أن ينطلق أعاد رأسه مستندا على كرسيه، وتذكر كيف تزوجها رغم استحالة الأمر، نعم هو لا يحب أحدا سوى نفسه، لكنه أمامها يشعر بأمر مختلف لا يعلم ما بها، فبرغم قوته وطغيانه إلا أن بها شيئا ما يجعله يضع لها ألف حساب هى ليست قوية أبدا، بل أضعف مخلوق رآه لكن هناك شيئا ما يجعله يشعر بالخوف أمامها.

رن هاتفه المحمول، بالتأكيد سكرتيرته الحسناء تستعجله، لم يجب على الهاتف؛ فقد كان فى حيرة من أمره: أيذهب لها أم يذهب لمنزله ويحاول إرضاء حسناء ؟

كان يريد أيضًا أن يلتقى بعم وأن يعرف وجهته المقبلة وخططه للمستقبل، حسم أمره وقرر العودة لمنزل حسناء، وانطلقت سيارته، لم يجدها فى انتظاره كما توقع، كانت فى غرفتها التى لم يدخلها منذ سنوات، طرق بابها بعد أن سمع صوت بكائها، فلم تجب نادى عليها: حسناء، حسناء أريد التحدث معك قليلا.

قالت له : ابتعد عن الباب سأخرج لك اتركنى لحظات وسآتى لك فى الردهة فأنا أريدك أيضًا وأريد التحدث معك.

جلس فى الردهة واضعا ساقا على ساق، وأشعل سيجارته، وحاول أن يرتدى قناع الهـــدوء والطيبة، هو صعب عليه لكنه سيتصنع؛ فهو قادر على تشكيل شخصيته جدا لكن هل سيفلح هذا معها؟!

خرجت حســـناء من غرفتها ترتدى السواد وتغطى شعرها بشال، ابتسم وقال لها:

- أتعلمـــين أنـــى أفتقـــدك كثـــيرا، أكاد لا أتذكر آخر مرة تحدثنا فيها، أعتقد كانت قبل عشـــر ســـنوات قبل معرفتك بهذا الأمر الســـخيف الـــذى لا أراه يمثل فارقا كبيرا فى حياتنا.

قاطعته حسناء صارخة:

- اخرس، فلتصمت لا أريـــد أن أتذكر هذا اليوم. تبا لك أشـــعر بالاشمئزاز من تذكر هذا، إنه كارثة. أتعلم أنى اتقيأ يوميا عند تذكر الأمر؟! حتى الشياطين لم يفعلوا ما فعلته أنت، كان يجـــب علىَّ قتلك حينها، أندم كل يوم علـــى عدم فعلها، وكانت النتيجة بعدها فقدى لهم، وليس هم فقط بل لم يتبقَ ســـوانا، عائلتنا حياتنا، كل شـــيء فقدناه، وأكاد أجـــزم أن لك يدا فى كل هذا، لا

شيء سيريحنى الآن أو يعيد الأمور لشكلها الصحيح سوى موتك أو موتـــى، لعل الله يغفر لى رغم أنه ليس لى ذنب.

ضحك جعفر وقال :

- موتى!

كيف لـــك أن تقوليها؟ هل ســـتقتليننى؟! فلتفعليها إن استطعت، لا أحد يستطيع فعل هذا لى، فالجميع لديهم قلب ينبض، مشـــاعر وأحاسيس، أما أنا فلا أعتقد أنى مثلكم، نعم لى قلب فى داخـــل صدرى لكنه مجرد عضـــو ينبض لأعيش فقط لا دور له أكثر من ذلك، أســـتطيع قتلك الآن وأذهب لتناول العشـــاء بمنتهى السعادة، رغم أنى لا أكرهك، خذى هذا المســـدس (وأخرج من جيبه مسدسه الخاص) أرنى كيف ستقتلينني؟!

ثم ضحك وأشعل سيجارة أخرى وقال لها: هيا فأنا أنتظر.

أمسكت المسدس وهى تبكى وترتعش وتقول :

- سأقتلك، نعم لا لا سأقتل نفسى، يجب الخلاص من هذا الجحيم، وإن كنت أعلم أن ما ينتظرنى فى العالم الآخر جحيم أيضًا.

ثم وجهت فوهة المسدس لرأسها تبسم جعفر وقال :

- افعليهـــا فقد كنت ســـأفعلها قريبا علـــى أى حال، هيا أطلقـــى النار على رأســـك ولتوفرى على هـــذا المجهود.

اســـتفزتها هذه الكلمات ووجهت فوهة المسدس نحوه وهى تبكى بهيســـتريا لا تقدر على اتخاذ القـــرار تارة توجهه نحو رأســـها وتارة نحوه، وهو لا يكترث بـــل يضحك ثم انطلقت الرصاصة وأظلمت الدنيا.

الكهف 50

استيقظ جعفر فوجد نفسه فى نفس الغرفة وجسده يؤلمه بشـــدة، لا يتذكر شـــيئا، لم يجد الباب مكان الغرفة، كانت المرآة مكان الباب، وعاد مرة أخرى يشعر أنه لا يستطيع اتخاذ القرار يســـير باتجاه المرآة، ويقـــف أمامها وهى تعكس صورته والكهوف العمرية من حول صورتـــه فيها، وكأنها لها صوت يناديـــه ليدخل بها لكن، يبدو عمره الآن أصغر بقليل، ملامح وجهـــه تبين هذا، ودون إرادته تبتلعه داخلها.

كنـــا فى طريقنا لشـــقتنا الجديدة الفاخـــرة، زياد ابنى الأكبر ويزيد وحســـناء معنا.

قال زياد :

- الشـــقة رائعة حقا بالتأكيد ثمنهـــا كان باهظا يا أبى، لكن إلى الآن لا أتخيل أنى تركت شقتنا القديمة التى بها كل ذكرياتى، كم ثمن هذه الشقة يا أبي؟

قال جعفر:

- لا شـــأن لك بهذا، لا أحد يســـألنى عن شىء، اذهب إلى غرفتـــك لن تحتاج إلى تجهيزها فيها كل شـــىء تحتاجه.

تدخل الأخ الأصغر يزيد قائلا:

- أبى، مـــن الطبيعى أن نشـــعر بالاندهـــاش خصوصا أن الشـــركة التى قمت بتأسيســـها لم يمر عليها سوى ستة أشهر! أى شركة هذه وأى مجال يجلب كل هذا الربح؟! بالإضافة أنها ليســـت ملـــكك وحدك، فهنـــاك ماجد شريكك، أى استثمار يجلب كل هذا الربح! أبى نحن لا نراك إلا نادرا حتى عندما علمنا بالانتقال إلى هنا كان الخبر مـــن أمى، هل تتذكر متى آخر مـــرة رأيتنا؟ منذ ذلـــك الحين ونحن لم نراك إلا وأنـــت الآن قادم لتأخذنا من منزلنا القديم بسيارتك الفاخرة، قد لا تصدقنى إذا قلت لك إنـــى لأول وهلة لم أعرفك.

قاطعه جعفر فى غضب:

- اصمت. ثم من أذن لك بالكلام؟! تبا لك أنت وأخوك ثم إنى ألف مرة قلت لا أحد يسألنى عن شىء، كل ما عليكم الطاعة، ومن اليوم لا تحادثونى إلا بعد أخذ الإذن.

ســـاد المكان الصمت قبل أن تشـــير حســـناء لزياد ويزيد بالدخـــول إلى غرفتيهما، ثم اســـتدارت إلى جعفـــر وقالت:

- لم أر فـــى حياتى مثلك، أنت قاس حتى مع أولادك، ليس فقط معى كيف تنهرهم بهذه الطريقة؟ كيف لا تشعر أن لهـــم حقا عليـــك؟! لقد أصبحوا رجـــالا ولم يعودوا

أطفـــالاً، إنك تتعامل معهم كمـــا كنت تتعامل معهم وهم فى العاشـــرة، لم يختلف الأمر إلا فى الضرب فقط، وإن كنت لا أســـتبعد أن تفعلها معهم.

قال جعفر :

- حقا، فقد كنت ســـأفعلها الآن، أشـــكرك على تذكيرى بتلـــك المعلومة القيمة، ذكرينى بهـــا المرة القادمة عند رؤيتى لهم.

نظرت له حسناء، وهى غير مصدقة ما قال، تشعر بالتعجب من رده عليها، ثم استدركت الأمر وقالت :

- أنـــا أيضًا أريد أن أعلم مـــاذا فعلت حتى تجنى كل هذه الأموال؟!

نهرت أولادك فهل ســـتنهرنى أيضًا أم ستتعامل لمرة واحدة صحيحة معى فى حياتك؟

نظر لها فى هدوء ثم أشعل سيجارة وقال:

- لا بالطبع، لن أنهرك مثلهم، ولن أثور عليك ولن أغضب، وأضيفى إلى هذه القائمة ولن أجيبك.

ضحك ضحكة عالية، ثم قال :

– لقد أمضيت وقتا طويلا معكم، سـأذهب الآن وأعود فجرا لا تنامى مبكرا كعادتك.

وذهب سريعا وأغلق الباب خلفه، لم تشعر حسناء بالتأثر؛ فقد اعتادت على معاملته هذه طيلـة حياتها، وكانت تعلم أن أولادهـا هم بالفعل حياتها؛ فوالدهـا ووالدتها توفيا قبل زواجها من جعفر ابن عمها بشهور فى حادث، وكان عمها أبو جعفر توفى أيضًا قبلهم، فلم يتبقَ لها سوى جعفر الذى كان يحبهـا منذ الصغر، وكانت تكرهه بشـدة؛ فقد كان طفلا بلا أدب، لا يحب سـوى نفسه، لم يكن مدللا من أبيه، بالعكس كان صارمـا، لكن جعفر لم يكن يطيعـه، وقطع ذكرياتها دخـول ابنها الأكبر عليها، جلس جوارها وربت على كتفها، قال لها :

– أمى، لم أعد اتحمل معاملته لنا ولك.

ردت حسناء : ولدى، إنه أبوك وطاعته فرض عليك ستؤجر عليها، وسيهديه الله أنا واثقة فى هذا.

***

هبط جعفر من سيارته الفارهة أمام تلك الفيلا المهجورة فى المنطقة النائية، ودفع بابها الحديدى الملئ بالأتربة و الغبار، أصدر الباب صريرا كأنه لم يفتح من سنوات، ثم ذهب باتجاه

المدخل الرئيسى مرورا على حديقتها اليابسة الأغصان، طرق الباب الرئيسى، وانفتح الباب.

دخـــل جعفر، ومع أول خطوة لقدمه تحول الظلام لشـــبه كتلة لهب من إضاءة الشر الحمراء المنبعثة فى كل الأرجاء، و على الجدران صور كأنها مرســـومة بالزيت، أشـــكالها غير مفهومة وجميع أبواب الغرف مفتوحة لكنها مظلمة، فلا ترى منها شـــيئا فى الخارج، و ســـلم الطابق العلوى عتيق، وهناك ســـاعة كبيرة معلقة فى المنتصف تماما تشـــير عقاربها إلى الثانية عشرة، لاوجود لعقرب الثوانى فقط عقرب الساعات و الدقائق، أصوات الرياح تصفر فى أنحاء الفيلا رغم أن الطقس هادئ جدا بالخارج.

جلس جعفر على كرسى جانب سلم الدور العلوى كمن يبدو عليه الاعتياد على الجلوس فيه، ثم سمع خطوات تهبط من على السلم

***

قال يزيد : أمي، أنتِ تعلمين أن أبى لا يملك أموالا، حتى عندما أنشأ تلك الشركة لم يدفع جنيها واحدا؛ فقد كان شريك ماجد صديقه بالجهد و هو بالأموال، و كما تعلمين أن ماجد يعشق أبي، ولا يســـتطيع فعل أى شئ فى حياته إلا

بعد أن يقول له أبى ماذا يفعل، أبى هو المتحكم فيه و المسيطر عليه للغاية، و ماجد هذا ثرى للغاية، لكن ألا تلاحظين اختفاء ماجد هذا تماما؟ هل تتذكرين آخر مرة رأيته أو سمعته فيها؟ ألا تلاحظين الساعة التى كان أبى يرتديها اليوم؟ ألم ترينها من قبل فى يد ماجد؟

وقفت حسناء مضطربة، كمن أصابه مس من الشيطان، وقالت:

- إلى ماذا ترمي؟ ماذا تريد أن تقول؟ أصمت، أصمت لا تتكلم .

تراجع يزيد مبتعدا عنها، ثم نطق بشفتين مرتجفتين:

- اهدئى أمى؛ أنا أقول ما أشعر به فقط، أنت تعلمين أنى لا أخفى عليك شيئا منذ صغرى، فأنتِ أمى و صديقتى، و لكن الأمر مريب للغاية.

صرخت حسناء للمرة الثانية ثم قالت:

- اذهب الآن و اتركني.

ألقى عليها نظرة حزينة و خرج و ارتمت هى على السرير تبكى وهى تربط ما قاله لها ابنها بما كانت تفكر به منذ شهور، لقد كانت تعلم أن هناك أمرا ما غامضا، و أن ما فعله جعفر

مع ماجد لا يفعله أحد عاقل؛ إذ كيف لشخص مهما بلغ ثراؤه أن يؤسس شركة بملايين، ويضع معه شريكا لم يدفع شيئا، لا بل و يجعله أيضًا يتخذ كل القرارات! أى حب هذا! أم أن هناك شيئا يخشاه ماجد و يعلمه جعفر وهو ما جعله يضغط عليه به لأن جعفر لا يصادق من الأساس، لا يستطيع أن يحب أحدا.

يا إلهى! إن عقلى سينفجر.

***

لم يتحرك جعفر لـــيرى من الذى هبط من الأعلى كمن يعرف فى الأساس من ســـيهبط، كان يمسك بورقة مطوية قديمة، ووقف أمام جعفر ووضعها فى يده، ابتسم جعفر و هو يمسك بالورقة، ثم رفع وجهه للأعلى ناظرا للقادم و مازالت الابتسامة ترتسم على شفتيه، لكن حين رآه تحولت الابتسامة إلى دهشة و ثغر فاه قائلا:

- أنت؟ كيف؟ ألم أقتلك؟!

قال ماجد :

- ألم تأخذ ما وعدتك به؟ لا تســـأل، كلنا نقرر معًا، انظر جانبك.

نظر جعفر جانبه، كانت تجلس تلك الفاتنة التى طلبت منه منذ فترة قتل ماجد الواقف أمامه الآن، لم يستوعب جعفر الأمـــر فأخذ ينظر إليها و ينظر إلى ماجد، ثم انتبه لأمر، من أين أتـــت ؟ هو جالس و لم يدخل أحد الفيلا غيره؟ و لم يجد أحدا هنا؟ و قبل أن يستوعب الأمر قال ماجد:

– اقرأ ماهو مطلوب فى الورقة.

نظـــر جعفر إلى الورقة و هو ما زال من هنا يكاد يجن، لكن ما رآه فيها كان أكثر من كل ما حدث فى الدقائق الماضية، قال:

– لماذا؟ لماذا؟ لن أستطيع...

جلس ماجد أمامه و قال:

– ســـتفعل، و أعلم أنك ســـتفعل، فلا يوجد أى أمر صعب عليك .

ثم نظر إلى عينيه مباشرة فقال:

– أنت تعلم أنك فعلت ما هو أسوأ من هذا منذ البداية، من غدا ستكون جاكلين الفاتنة التى بجوارك هى سكرتيرتك فى الشركة، وستعتنى بشئوننا، وستكون همزة الوصل منا هنا، أعلم أنك لن تغضبنا لأنك اذا أغضبتنا ستغضبه،

فكيف تكون مطيعا له كل هذه السنوات؟! و من رغبته أن لا يتدخل أو يرسل لك أحدا، ثم بعد ذلك تعصيه؟!

و هنا ارتجت الفيلا ودوى صوت كالرعد وأغلقت الأنوار لتعود، و يجد جعفر نفسه بمفرده فى الفيلا و بيده تلك الورقة.

عاد جعفر إلى منزله الجديد فجرا، دخل غرفته فوجد حسناء نائمة فأشاح بوجهه عنها، قائلا:

- كنت أعلم هذا، ستنام كعادتها مبكراً.

ثم خرج من الغرفة مسرعا، وفتح الباب على غرفة الأولاد، وجدهم هم أيضًا نياما، انتظرهم فى الردهة إلى أن استيقظوا، وقف زياد ويزيد أمامه، قال لهم:

- لم يعجبنى حديثكم بالأمس، فقد أثرتما غضبي، و أنا أمقت هذا، تعرفون أن لا شئ يزعجنى دون أن يمضى بلا عقاب، لذا من اليوم ستعودون إلى منزلكم القديم ستعيشون هناك بمفردكم، حتى آذن لكم بالعودة للعيش معنا مرة أخرى.

هم يزيد بالتحدث إلا أنه أصمته قائلا:

- أى كلمة تزعجنى منكم الآن ستزيد من فترة غيابكم عن هنا، نفذوا فقط! هيا الآن، ستجدون السيارة أسفل وبها السائق ينتظركم، كما أنتم دون كلمة واحدة ولا حتى فرصة تبديل ثيابكم.

كانت حسناء فى تلك الأثناء قد استيقظت وتعد الطعام، و عندما عادت لم تجدهم، قالت له:

- أين الأولادَ؟

قال لها:

- عادوا إلى المنزل القديم.

قالت:

- لماذا؟

قال لها:

- فترة قليلة ثم سيعودون مرة أخرى.

قالت:

- أنت من أرسلتهم بالطبع، لماذا؟ لماذا؟! إن كنت لا تحبهم فهم حياتى، أنت تعذبنى بما تفعله، أعدهم إلىَّ الآن، أرجوك.

قال لها بصوت عال:

- قلت لك سيعودون مرة أخرى، تبا لك أنت الأخرى! و حذارى أن تتصلى بهم أو تذهبى إليهم، سترين أشياء ستجعل حياتك جحيما لا يطاق.

أنهى الحوار وهو يصفع الباب خلفه، وذهب إلى الشركة حيث كانت جاكلين تنتظره، وقال لها :

- اشرحى لى الآن كيف حدث هذا؟! ومنذ متى؟ وكيف لماجد أن...

قاطعته قائلة :

- لا حديث هنا إلا عن العمل، سنتحرك، عليك الآن فقط إصدار قرار تعيينه هنا، متى ستنفذ ما طلبته منك؟

عقد حاجبيه و قال :

- الليلة سينتهى الأمر!!

قالت :

- حسنًا، كنا نعلم أنك لن تخذلنا أبداً.

قال :

- من أنتم؟

قالت :

- إن لم تكـــن تعلم من نحـــن، فكر قليلًا وســـتعلم!! و بعد التنفيذ ســـلم هذه الرسالة لـــ حســـناء، لكن حذارى أن تفتحهـــا و تقرأها قبلها.

أومأ برأســـه بالإيجـــاب، فنظرت له جاكلـــين بإعجاب و تمتمت :

- حقًا أنت تبهرنى، كما قال لنا إنك تتفوق علينا جميعًا.

و اتخذت وضع الجدية وهى تميل برأسها على أذنه و تقول :

- أتعلم أنى راهنته عليك ؟ وأنك لن تستطيع تنفيذ هذا الطلب الأخير بالذات.

لكنه ضحك بسخرية منى و قال :

- سينفذ و يطيع.

و قد كان. قال لها جعفر:

- لتعلمى أمرًا، أنا لم أطع أحدًا طوال حياتى.

قاطعته بنبرة استهتار قائلة :

- كنت تطيع دون أن تعلم، صدقنى.

وضحكت، ثم أردفت قائلة :

- أعلم أنى أعجبك، أرى ذلك فى عينيك، يمكننا أن نقضى بعض الوقت معًا بعد التنفيذ الليلة وإعطاء حسناء الرسالة، سأكون فى انتظارك.

و ابتسمت فى ميوعة.

فى المساء كانت سيارة جعفر أمام المنزل القديم، خرج من السيارة فى ترقب و هدوء، ثم صعد إلى شقته فى بطءٍ، بينما يغط زياد ويزيد فى نومٍ عميق، فتسحب إلى المطبخ و قام بفتح الغاز، ثم أغلق جميع النوافذ وأشعل شمعة فى منتصف الشقة و فتح الباب وأغلقه خلفه بإحكام وثم نزل دون أن يراه أحد. و فى الطريق قبل أن يصل إلى منزله، دق هاتفه مرات ومرات. رفض أن يجيب عليه ليصله الخبر أمام حسناء، و بعد أن دخل منزله بالفعل أجاب على الهاتف وتظاهر أمامها بالبكاء و الحزن، و قال لها :

- لقد احترقت شقتنا القديمة و بها...

وقبل أن يكمل سقطت حسناء فاقدة للوعى. مر أسبوع كانت فيه حسناء داخل المشفى، تُعالج من أثر الصدمة الشديدة، و لم يزرها جعفر سوى مرتين، فقد كان مشغولا مع جاكلين، وعندما أخبره الطبيب بيوم خروجها، ذهب وأخذها، ثم أدخلها جعفر غرفتها، وقال لها:

– لا تحزنى، فقد انتهى عمرهما.

كانت لا تزال فى حالـــة الصدمة، دموعها تهبط بغزارة، جلست على السرير و قالت :

– من أى شـــئ خلقت أنت ؟، لم أر دمعة واحدة لك منذ أن سمعت الخبر، حتى دموعك وأنت تتلقى الخبر لم أشعر بصدقها.

التف إليها جعفر بعد أن كان يهم بمغادرة الغرفة و ابتسم بسخرية و قال :

– هـــل اصبحت تعلمين ما بداخل البشـــر، لتحددى صدق الدموع من عدمها ؟ يبدو أنك لم تذهبى إلى المشفى، بل إلى عالم روحانيات، (ثم تذكر و أردف) سأذهب إلى المكتب الآن، هناك مظروف بجانب السرير هو لكِ.

أمسكت حسناء بالظرف، و قبل أن تفتحه قالت بصرامة :

– لا تذهب. ما هذا المظروف

قال : افتحيه و ستعرفين.

قالت له : إذن، انتظر !!

جلس على الكرسى المقابل لها فى ضجر و ملل و قال :

– حسنًا.

فتحت حسناء وفتحت المظروف، كان بداخله صورة قديمة، نظرت لها و لم تتحدث لمدة دقيقة، لم تكن تستوعب ما رأته، قالت له :

– هذه أمى و أنا صغيرة، أعى هذا تمامًا والتى تقوم برضاعتها هى أنا، إلى هذا الحد الأمر طبيعى و لكن، من هذا الذى ترضعه فى الجهة الأخرى، تلك الشامة على يده اليمنى و هو يمسك ثديها تشبه كثيرا تلك التى على يدك... يدك؟!

سقطت الصورة عند قدميها و قالت له:

– ما معنى هذا؟

و قبل أن تجيب لمحت ما هو مكتوب فى ظهر الصورة: لن أنسى لكِ أبدًا هذا الجميل، أشكرك على إرضاع ابنى جعفر ، لاتخافى فلم ير والد جعفر الصورة فقد كان يريد أن تراها أمى وهى فى المشفى، أراد أن يطمئنها أنك ترضع لذلك كتبت على ظهرها، .

نطقت حسناء :

– الموت أهون من فهم الأمر بشكل صحيح.

وبصوت خافت و جسدها يرتعش و ينتفض قالت له:

- هل هذا يعنى أنك ...

وابتلعت ريقها ثم نطقت كلمة «أخى» بصعوبة

وتبدلت لهجتها لشبه انفجار:

- أكنت تعلم أنى محرمة عليك و تزوجتنى ؟ أكنت تعلم أنك أخى فى الرضاعة؟!

أرادت أن تصـــرخ و لكن لم تخـــرج الصرخة من حلقها، أما جعفر فقد كان هادئًا و صامتًا لا يبالى، نظر إليها و هو يقول داخل عقله :

«تبًا لكم، لم يكن هذا التوقيت المناسب لكشف الأمر، المقابل يجب أن يكون كثيرا».

ثم نظر إليها و قال: لا، لم أكن أعرف.

قالت له :

- كاذب، كاذب، أنـــت تعلم كل شـــئ و إلا لماذا كان أبى شـــديد الإصرار فى رفضك؟!

- لم أكن أعلم.

قالها جعفر بهدوء، و هنا صرخت حسناء صرخة و كأنها آتية من الجحيم و قالت له :

- اغرب عن وجهى، لا أريد أن أراك ثانية.

ابتسم جعفر و قال:

- حســـنًا، اتركك حت تهدئى، لكن صدقينى سواء كنت أعلم أو لا فلن يشكل ذلك فارقًا فى النهاية، تزوجتك و هذا ما أردته، فأنتِ كما تعلمين لا شـــئ أريده ولا آخذه، ولا يمنعنى أى شئ.

كررها جعفر مرتين، ثم فتح باب الغرفة ليجد المرآة تجذبه بقوة تجاهها وولج داخلها سريعا ليجد نفسه فى مكان آخر.

***

الكهف 40

كان يجلس على مكتب صغير فى ردهة، وبجواره غرفة معلق بجانبها اسم محامٍ شهير، كان بالطبع أصغر سنًا، هذا ما رآه من انعكاس صورته من زجاج المكتب الذى أمامه، حيث كان يعمل سكرتيرا لهذا المحامى، تذكر أنه وصل لهذا العمل بعد إخفاقات كثيرة، فى كل عمل يذهب إليه لا يستمر فيه أكثر من شهر، كان يُطرد أو يتركه لأسباب كثيرة، و لكن حجته لهذا أن كل ما سبق لم يكن يرضى طموحه المادى، فهو يريد جمع أموال كثيرة ليحسن مستواه الأجتماعى، حتى وجد ضالته هنا عندما كان يجلس فى مقهى أمام محكمة صغيرة و أتى إليه هذا الرجل و قال له :

- أريدك أن تشهد أمام المحكمة الآن فى قضية لى، إن المحامى ينتظر فى الداخل من أجلى والشاهد الذى طلبه منى لم يأتِ حتى الآن، ستقول ما أمليه عليك.

وافق جعفر و ذهب مع الرجل بعد أن لقنه ما يريده أن يقوله أمام القاضى .

باغته القاضى بسؤال لم يكن يعلم عنه شيئا من الرجل صاحب القضية، لكنه استطاع بمهارة و ثقة الإجابة عليه، بل و راوغ القاضى بحنكة، حتى نظر له المحامى بانبهار شديد، و بعد نطق الحكم قام بالنداء عليه و استوقفه، و عرض عليه

العمل كمساعد و سكرتير معه، كان يرسله لاستخراج الأوراق التى لا يتم استخراجها، يدفع الأموال للموظفين و رشوتهم، كان يفعل ذلك بمهارة، وكان يستغله فى أى شهادة لأى موكل له، أو يرسله لجمع معلومات عن القضايا حتى أصبح جعفر ذراعه اليمنى وأصبح المحامى يعتمد عليه فى كل شئ. قال له ذات مرة :

- أنت لا ينقصك إلا شهادة من كلية الحقوق، لتصبح من كبار محامين البلد، وإنى أحمد الله أنك لم تحصل عليها و إلا جلسنا كلنا فى منازلنا، إنى لمحظوظ لأنى استطعت أن أجد مثلك.

رغم إعجاب المحامى و انبهاره به و أنه كان يعطيه مرتبا ضخما أكثر من أى عمل له إلا أن هذا لم يرضه بالمرة؛ لأنه يطمع فى ثروة هائلة، قطع تفكيره الجرس الخاص بالمحامى الذى يستدعيه به لمكتبه، دلف إليه سريعا، وقد جلس أمامه على المكتب شاب فى الثلاثينات من عمره، بدين يبدو عليه أنه ذو شأن، فملابسه و الساعة التى يرتديها يعادلان مرتبى فى سنوات، يبدو أنه رجل أعمال أو أنه رجل ذو شأن كبير، أشار له المحامي بالجلوس فنظر إلى الرجل متوجسًا و قال :

- لا تقلق سيد ماجد، اعتبر الأمر منتهيا، دون أى مشاكل، لدينا وقت طويل حتى موعد الجلسة، سأسافر فى رحلة قصيرة للخارج و سيتولى جعفر المتابعة معك لكافة الإجراءات التى سنحتاجها، فهو عبقرى، وفى كل الأحوال حتى لو لم أسافر جعفر هو من سيقوم بهذه الإجراءات غير الرسمية.

ثم غمز بإشارة خبيثة، تعنى أنك تعلم أن كل ما سيفعله هو خارج القانون بالتأكيد، ثم أمسك ملفا وأعطاه لجعفر آمرا :

- اقرأ هذا جيدا .

نهض جعفر من مكانه و تسلم الملف و حين استدار للخروج أوقفه ماجد وأعطاه البطاقة الخاصة به و التى تحتوى كل أرقامه و قال له:

- اتصل بى فى أى وقت.

ألقى جعفر نظرة على البطاقة و قرأ: ماجد رجل أعمال و صاحب شركات تغذية، شعر جعفر أن الأمر سيتخطى التعامل فى القضية فقط مع ماجد، لا يدرى ما سبب هذا الشعور؟ هل هى يا ترى نظرات ماجد له؟ أم حلمه فى التعرف على أى أحد يرفعه إلى أعلى ؟ أم الراحة التى شعر بها عند

رؤيته له لأول مرة؟! ظل جعفر طوال الليل عاكفًا على قراءة الملف، كانت المشاكل التى ستودى بسعيد إلى السجن كلها متعلقة بتغذية مدارس الأطفال، لكن بالنسبة لجعفر كان الأمر بسيطًا جدا، تنهد ثم أغلق الملف و نام . فى الصباح قرر أن يتصل بماجد ليطمئن عليه و يفتح باب المحادثات بينهما؛ فقد كان يهدف بالطبع لتوطيد العلاقة أكثر، يومان فقط كانا كفيلين لجعفر لإنهاء أمور القضية، و لكن فى نفس الوقت كان عليه انتظار عودة المحامى، أبلغ جعفر ماجدا بهذا فارتاح كثيرا، وقام بدعوته للعشاء فى فيلته الكبيرة وكان هذا بالضبط ما ينتظره جعفر:الفرصة؛ هكذا سيتقرب من رجل الأعمال الثرى للغاية.

فى الثامنة مساءً ارتدى جعفر أرقى ثيابه واستقل سيارته القديمة، استقبله مدير المنزل و أشار له بالدخول إلى غرفة المكتب حيث ماجد ينتظره بداخلها. كانت غرفة المكتب فاخرة مثلها مثل بقية الفيلا، استقبله ماجد بابتسامة و نهض له ليصافحه وأجلسه أمامه ثم باغته بقوله :

- لم تكن القضية معضلة، فأى محام مبتدئ كان سينهيها لى، مهلا نسيت أن أقول لك شيئا، إياك أن تخبر زوجتك عما سيدور بيننا الآن، لقد سمعت عنك كثيرا و عن ذكائك و طموحك و ألاعيبك، . وها أنت هنا الآن

لتقبل عرضى، أريدك أن تكون مساعدًا لى بشكلٍ شخصى و بشـــكل رسمى ستكون مستشارى الخاص، القرار لك لا إجبار فيه، اعتبره عرض صداقة.

فكر جعفر قليلا فى كلام ماجد؛ إذ لم يكن بتوقع أن يكون الأمر هكذا، كل ما دار فى خلده أن الأمر لن يخرج عن اثنين: الأول أن يشكره على مجهوده فى القضية بمكافأة، و الثانى أن يطلب منه أن يعمل معه فى شركته، و لكن ماجد باغته بهذا الطلب الغريب، أيقظه ماجد من ثباته الفكرى وقال :

- هيا لنتناول العشاء و نكمل بعده حديثنا .

ذهبوا إلى مائدة الطعام التى كانت تحمل أصنافا كثيرة من شتى أنواع الطعام اللذيذ الذى كان يسمع عنه جعفر أو يراه فقط فى التلفاز، أشـــار ماجد لجعفر، أن يتفضل بتناول الطعام و قال وهو يسترسل فى الأحاديث على المائدة :

- لقد كنت وحيد أبى، و توفى و ترك لى كل هذه الشركات و الثروة الطائلة، سأقول لك سرا، لا أعلم لماذا وثقت بك بهذه السهولة، أشعر أنى أعرفك منذ فترة طويلة، أنا بلا أصدقاء، رغم أن الكثيرين يتمنون صداقتى، لكنى لم أشعر تجاههم بالصدق أبدًا، كلهم يريدون صداقة ماجد الثرى لا شخص ماجد الحقيقىن أعترف لك لست أتمتع بقدر

كبير من الذكاء ولا النشـــاط ولا البديهة، لولا وجود المســـاعدين الذين كانوا يعملون مع أبى لما استطعت أن أحافظ على الشـــركات و الثروة، أحتاجك كعقل لى، أنت لديك الذكاء و التخطيط و أنا أملك المال.

كان جعفر يتناول الطعام مســـتيقظا ومنتبها لكل حرف يقوله ماجد، فكر كثيرا أن يقاطع ماجد أثناء حديثه ليسأله عن الاســـتفادة المالية له، لكنه صمت؛ فمثل هذا السؤال الآن ســـيثير شـــكوك ماجد بطمعه. أنهى جعفر طعامه و ســـأله السؤال لكن بشكلٍ خبيث:

- و ماذا عن عملى مع المحامِ، هل سأتركه؟

رد ماجد سريعًا :

- لا،لا، استمر، فسنحتاج كثيرا له فيما بعد.

وافق جعفر بالفعل علـــى العمل مع ماجد، ولم يخب ظن جعفـــر؛ فقد كان ماجد يعطيه أمـــوالا لا بأس بها، بجانب عمله الأصلى مع المحامى. تطور الأمر وأصبح ماجد لا يتخذ أى قـــرار فى حياته إلا بعد موافقة جعفـــر عليه حتى الأمور الشـــخصية، الأمر الوحيد الذى لم يأخذ فيه رأيه هو خطبته من تلك الحســـناء، لايدرى جعفر لماذا اســـتفزه هذا الأمر جدا؛ فقد فوجيء بماجد يقول له إنه ســـيخطبها، كان هذا

بعـــد مرور عامين على معرفتهما ببعض، كان جعفر فى هذا الوقت يشـــعر فعليا بالملل، وأنه لايتقدم خطوات سريعة نحو الثراء والصعود الذى لا نهاية لسلم طموحه فيه، جاء توقيت الخطبة هذا ليفجر جعفر ناحية ماجد طاقة الغضب، فتحَين مقابلة معه وقال فى لهجة محتدة :

- حســـنا أريد الاكتفاء ,عامين لم أتركك لحظة، كنت معك فى كل قراراتك ووقفـــت جانبك كما اتفقنا، كل هذا على حساب حياتى الشخصية؛ فقد كنت تتصل بى فى أى وقت لأحضر لك فورا، لكن هكذا ســـأظل فى الظل إلى الأبد، ثم انى لا أســـتبعد أن تجد شريكا أذكى منى فتقوم بالاستغناء عنى.

انتفض ماجد مما سمعه وقال لجعفر فى فزع:

- لا لا صدقنـــى لاأســـتطيع أبـــدا الاســـتغناء عنـــك ولا أخـــذ قـــرار بدونـــك ياجعفـــر، أنـــا أشـــعر أنـــى طفلـــك الصغير، اطلب ماتشـــاء ســـأنفذه فـــورا تريد أمـــوالا؟ ســـأعطيك أضعـــاف ماكنـــت أعطيه لك.

كان جعفر يعلم أن ماجد لن يتركه بالطبع، إنما أحب أن يضغط عليه ليحقق فكرة خبيثة لمعت فى ذهنه، ارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء، ثم اتكأ فى كرسيه للوراء متحدثا:

- فكرة أنـــك تعطينى أموالا مقابـــل عملى معك لم تعد تســـتهوينى ياماجد، هذا لايشـــعرنى بالأمـــان مطلقا، بالإضافة إلى شعورى بالإهانة جدا كأنى خادمك المطيع أو عبد لديك.

نظر ماجد مستجديا له ونطق بتلعثم:

- اذا ماذا تريد؟

أجابه جعفر :

- لا أعلـــم، لكن بالتأكيد أريد شـــيئا يحفظ لى كرامتى ويشـــعرنى بصداقتنا لا تعاليك علىَّ.

هنا نطق ماجد بعرضه الرهيب أن ينشئ شركة يكون فيها جعفر شريكا رسميا فى الادارة، وهذا ما يريده جعفر بالفعل.

أتى اليوم الذى وعد ماجـــد جعفر فيه بلقاء خطيبته فى الفنـــدق الفخم، كانت أجمل من يـــوم الخطوبة، هى فاتنة بحـــق لم تمنعنى صداقتى به من النظر إليها خلســـة، نظرة المعجب بالطبع، لكن أغرانى أنها كانت تسرق بعينيها نظرات خاصة لـــي. لا لم أتوهم هذا بالطبـــع، فأنا محنك فى هذه الأمور وأفهم النســـاء من نظراتها لى، شعرت أنها تود أن تقول شيئا، خصوصا عندما تحدثنا عن الأذواق والعادات. ابتسمت ابتسامة خافتة و سألتنى:

– لماذا لم تأتِ بالمدام معك؟

قلت لها :

– إنها لا تحب السهر ومتحفظة بعض الشيء.

و عندما ذهب ماجد للحمام توقعت أنها ستستغل الفرصة و تتحدث معى، لكنها قالت جملة واحدة:

– ماجد مثل الطفل الصغير و أنا أعشقه.

لكن ابتسامتها بعد هذه الجملة لم تكن بالبريئة مطلقا، أتى ماجد طبعت قبلة حادة على خده ثم قالت له و هى تتدلل عليه:

– افتقدتك كثيرا.

ثم نظرت إلَّ كأنها تريد أن توجه رسالة ما لى، إنها تلاعبنى أعلم هذا جيدا، لكن لماذا و ماذا تريد؟ لا أدرى، لكن حتما سأعرف، و ستأتى هنا وتعترف أو تطلب، إنها مسألة وقت ليس أكثر، لعبة ممتعة بين عقلين يستمتعون بالذكاء و الدهاء، لكنها بالنسبة لى تلميذة صغيرة، سأتركها تلهو وأدعى الغباء لأجل أن أرى مدى ذكائها و ضعفها.

بعد انتهاء العشاء، و فى أثناء ركوب السيارة معهم، و بعد أن قام ماجد بفتح باب السيارة لها واستدار ليركب

هو، ألقت ورقة على الأرض ونظرت إلىَّ فى إشـــارة لى منها أن آخذهـــا، مددت يدى و أخذت الورقة ووضعتها فى جيبي، وبعد أن قام ماجد بتوصيلى للمنزل، وقبل أن أصعد للمنزل، فتحت الورقة.

كان بها جملتان لا أكثر:

- انتظرنى غدا فى نفس المكان الذى كنا فيه اليوم لكن فى الخامسة مساء لا تتأخر.

وفى الســـطر الثانى ملحوظة: أعلم أنك لم تخبر ماجد بهذا، تحياتي، جاكلين.

كنت أعلم أنها ســـتطلب رؤيتى بمفردنا، صعدت لمنزلي، كانت حسناء كالعادة نائمة، اســـتبدلت ملابسى و قبل أن أنام وجدتها تســـتيقظ، قلت لها:

- هل ستستيقظين الآن؟

قالت:

- نعم، سأصلى الفجر. بالطبع لا تعلم أنت متى يؤذن فلم أراك و لو مرة واحدة تصلى أبدا.

نظرت لها دون أن أبالى واستدرت وأعطيتها ظهرى و نمت.

فى تمام الساعة الخامسة تماما كنت أجلس فى هذا المطعم، و أنتظر جاكلين. قاربت الساعة على السادسه و لم تأتِ، بدأت أرتاب فى الأمر، لماذا؟!

أتى نادل المطعم و أعطانى ورقة صغيرة قال إن السيدة تركتها لى، سألته:

- متى أتت؟ إنى جالس منذ ساعة و لم أرها!

قال:

- أعطتها لى منذ لحظات، يبدو أن حضرتك كنت تفكر فى أمر مما جعلك لا تراها عند الدخول.

نظرت فى الورقة وجدت عنوانا، مكتوبا أسفله: أنتظرك هناك. ذهبت إلى العنوان، كانت فيلا مهجورة فى منطقة ثانية بعيدة عن الزحام، كانت أبوابها الخارجية مغلقة، وبابها المطل على الحديقة مفتوحا، دخلت إلى الفيلا، أضواؤها حمراء، لا أعلم أهناك من يسكنها أم لا، أمامى كانت تجلس و تضع ساقا فوق ساق، تدخن سيجارة، إبتسمت و قالت:

- أعتذر لك عن عدم ذهابى فى الموعد، لكن كنت أريد أن أتأكد أنك لن تبلغ ماجد.

قلت لها:

- ما هذا المكان؟

قالت لـ و هى تجول بعينيها فى أرجاء الفيلا:

- هنا سنبدأ حياة جديدة، سنأخذ كل ما نتمناه ونحلم به، فقط عليك أن تنفذ ما يملى عليك، و يتم طلبه منك، ستتسلم هذه الأوامر فى ورقة تنفذها، دون سؤال، هذه هى الصفقة.

جلس جعفر غير مستوعب ما يحدث، لم يفهم حتى أخذ سيجارة و أخذ يدخن فى شراهة، و قال:

- لكن...

قاطعته بحدة:

- لا تسأل، فكر، ولكن عليك الإجابه بموافق أو لا قبل الانتهاء من سيجارتك، و إن وافقت ستجد تحت المقعد الذى تجلس عليه ورقة بها الأمر المطلوب تنفيذه.

لم ينتظر جعفر أن تنتهى سيجارته ليتخذ القرار، وسحب الورقة من تحت المقعد و فتحها كان مكتوبا بها اقتل ماجد وتمتلك الشركه لك كلها.

لكن كيف ستؤول له الشركة بمفرده؟ لم ينطق السوال لكنها أجابته، وكأنها تعلم ما يحدثه به عقله، قالت:

- هذا ليس من شـــانك عليـــك فقط قتله، أمـــا الباقى فاتركه لنا.

رد بدهشة:

- لنا؟ من أنتم؟!

نهضت متجاهلة السؤال تماما و صافحته وقالت: أمامك اسبوع لتنفذ.

لم يكن الأمر بالصعب على جعفر أو الذى يعوقه، ولم يكن انقطاع ســـلك الفرامل الخاص بســـيارة ماجد صدفة، لكن الغريـــب انه وجد فى اوراق ماجد بعـــد الحادث تنازل له عن إدارة الشركه، اســـتقل جعفر سيارته ليذهب إلى الفيلا، لكن بعد إتمـــام الأمر وجد المرآة مكانها.

الكهف 30

عدت إلى نفس المكان الذى استيقظت به، أتذكر ما مررت به عند ولوج المرآة فى الثلاث مرات السابقة وتأكد لى كم أنا سيء للغاية!! أى بشر أنا ؟!

ماهذا الشر الذى غمست فيه؟ بل صرت طاقة موزعة له، لم أجد عملا صالحا واحدا لى، لم أجد حتى رمق قطرة خير! ها أنا أسير كالعادة نحو المرآة، لا أحد ينبض هنا غيرى، كم هو صعب فقدان الخيار؟! أقف أمامها محاولا تفادى سحبها لى، لكن لامفر ليس بيدى شيء، ولجت قدماى كهفا فى داخلها لتنهى محاولاتى فى الفرار بالتسليم رضوخا جبريا.

***

فى غرفتى، بجدرانها المليئة بصور المطربين والمطربات، وأمامى رفيقة ما بعد عهد الطفولة المنقوص منى، علبة سجائرى، باب الغرفة مغلق، صوت مذياع يأتى من الخارج بآيات من القرآن، لكنى أضع سماعات أذنى لتخفى صوته بالأغانى، ويدى تتصفح مجلات الفاتنات، يروقنى فى كل واحدة منهم شيء، أتفحص وأدقق فى التفاصيل فى جمالهن البارع وأحلم بالثراء الذى يجعل مثلهن يركبن معى سيارتى الخاصة، سحقا، لا مال لدى، تبا للفقر! أريد أن استبدل

بلك الحياة الراكدة أخرى مثيرة، أصعد فيها من مستوى معيشتى المتدنى، لا مال لدى، إلا ما يعطينى إياه أبى من معاشه، وأنا بعد خروجى من الجامعة لم أعمل، وبالطبع لا يكفينى مايعطنيه أبى أبدا، فهو بالكاد يغطى حق سجائرى التى طالما حاول أبى منعى منها بحجة التحريم تارة، وتارة أخرى بحجة صحتى وأنى شاب فى مقتبل العمر لكن منذ متى وأنا أطيعه؟!

لم أكترث أبداً، لقد كنت أراه مفتقدا للطموح والمغامرة، تقليدى لأبعد حد، روتينى يظن أن ماهو عليه رضىً، لكنه فى الحقيقة ركود عن مغامرات الحياة.

لم يطرح أبدا فى حياته موضوع سفره للخارج لتحسين دخله ولا يتحدث أبدا عن تطوير ذاته والصعود بنا من جحيم الفقر، أعلم أنه مريض الآن، وأن حالته الصحية لا تسمح له بذلك، فقد فات أوان شبابه لاقتحام معترك الدنيا، أتعجب من تناقض نتيجة نصحه عليه شخصيا؛ فهو مصاب بالربو رغم أنه لم يدخن سيجارة واحدة طيلة حياته، سعاله يجعلنى أشعر أنى على حق تماما، فهو حتى لا يتحمل أى أتربة أو رائحة، تبا لمثالية الآباء الزائفة، هاهو يتوجه للوضوء، لا ريب

أنها صلاة المغرب، أو العشـــاء، صدقـــا لا أعلم، المهم عندى أن الليل قد حان، هو ســـينام قريبا وأنا سأسهر فى متع شبابى، لأســـقط قبيل الفجر بالتحديد عند استيقاظه هو للصلاة، لاأعلم لما يكلف نفسه مشقة النزول للمسجد حتى فى مرضه والبرد، حســـنا لأدعه فى ورعه وتقواه وأكمل حلمى الشغوف بالســـيارة الفارهة، هذا الحلم سيتحقق بالتأكيد فى يوم ما، مـــازال المذياع فى الخارج يتمتم بتواشـــيح قبيل الفجر، بعد دقائق ســـينادى علىَّ أبى، وبالطبع لن أنهض من سريرى أبدا، ففى هذا الوقت تحديدا يســـتولى الكسل على جميع أعضاء جسدى، ويصبح القيام شبه مستحيل، هذا اليوم الثالث الذى لم أخـــرج من منزلى فيه، مللت جدا، ربما اليأس هو الســـبب، ســـأخرج اليوم وأجلس على المقهى، أتســـامر مع من يسمون أنفسهم أصدقائى ونلعب الطاولة والخاسر سيُحاسِب بالطبع عنا جميعا، بالطبع لن أكون أنا فذكائى يجعلنى أفوز كل مرة عليهم، لكن ماذا لو خسرت بالفعل الليلة! من أين سأدفع الحســـاب؟ لذا كنت دوما أراقب المقهى لأنتظر أحدهم يأتى ويجلـــس ثم أدخل وأتظاهر بالســـلام عليه وأجلس معه على طاولتـــه، يعجبنى مدحت جدا، فهو الوحيـــد الذى لا يترك يوما لا يأتى فيه للمقهى، قفزت على درجات الســـلم ووصلت

للمقهى وبالفعل وجدت مدحت جالسا، يعجبنى مدحت فهو الوحيد الذى لا يفوت يومـــا لا يأتى به إلى القهوه لقد رآنى:

- مدحت صديقى كيف حالك؟

- بخير يا جعفر.

- كيف حالك انت لماذا أنت مختفٍ منذ ايام ؟

يســـند جعفر ظهره على الكرســـى و يتراجع ويضع يديه الاثنتين خلف رأســـه و يقول:

- لا شيء فقط هو الملل.

و يبسم و يكمل تمطعه بكسل، يرد عليه مدحت:

- بالطبع، فأنت لاتعمل ولا تفعل أى شيء آخر، صدقنى إذا عملت ستتغير الأمور كثيرا أتدرى...

قاطعه جعفر فى ضجر:

- هل أترك أبى فوق لتأتينى أنت هنا؟! ســـأعمل يا مدحت صدقنى لكـــن ليس الآن على الأقـــل، عندما أجد العمل الذى يرضى طموحى وأشـــعر بالحمـــاس تجاهه، هيا لا تضع وقتنا، ســـنلعب كالمعتاد.

ضحك مدحت و أمسك بالطاولة:

- وستفوز كالعادة، وسأدفع أنا كالعادة.

أخذ جعفر يلعب بحماس و فجأة توقف جعفر وأدار وجهه للتلفاز؛ فقد كان يعرض فقرة الساحر المصرى المشهور دافيد كوبرفيلد، انبهر جعفر بما يفعله الساحر، ولاحظ مدحت تركيزه عليه هتف جعفر لمدحت و قال:

- أرأيت ما يفعله، إنه يتعدى حدود الواقع، ليتنى أستطيع اختراق الزجاج و الطيران فى السماء مثله، ترى كيف يفعل هذا؟!

قاطعه مدحت قائلاً:

- هناك الكثير من هذه الفقرات يعرضها الآخرون أغلبها خدع بصرية، لكن هذا الشخص بالتجربة يقوم بهذه الأعمال بنفسه مستعينا بالعالم الآخر، لقد قرأت عنه فى الجريدة مرة مقالا يكشف تحالفه مع الشيطان، و لمعلوماتك ليس هناك ساحر بالفعل إلا بعد أن يقوم بأمور كثيره صعبة للغاية تخرجه من دائرة دينه أو إنسانيته على الأقل، فمن يصبح حليفا للشيطان عليه أن

يثبـــت ولاءه له، وقد يكلفه الأمـــر حياته إن لم ينجح.

كان جعفر ســـعيدا بحديث مدحت ينصت له بكل تركيز و اهتمـــام، و لكن عقلـــه كان يعمل فـــى الاتجاه المعاكس للنصيحة، صمـــت جعفر دقيقة، وكان يعيد ما سمعه داخله من مدحـــت، متناغما مع العرض الذى على شاشـــة التلفاز لتقرع طبول الشـــر داخله، ثم هتف متسائلا:

- أتعلم هذه الطقوس؟

أجابه مدحت:

- لا أعلم بالطبع، لكن هنـــاك الكثير من الكتب التى تباع على الأرصفة أغلبها ليســـت رسميـــة لدجالين أو مدعى معرفة. إن هذا الموضوع شـــائك يا صديقى.

ثم نظر لجعفر وضحك ضحكه عاليا و قال مازحا:

- ولكن الكتـــاب الذى اتبعه ديفيـــد بالتاكيد ليس مزيفا ســـافر إليه و اسأله يا صديقى.

ثم عقد حاجبيه فجاة و بدت عليه الجدية و وجه ســـؤاله لجعفر:

- لماذا أنت مهتم هكذا؟

أجاب جعفر فى تلقائية:

- لقد أبهرنى و جعلنى أحلم بفعل ما يفعله...

ثم استدرك و قال:

- ما هذا هل أغلقت الطاولة هل تتهرب منى بعد ما قاربت على الفوز.

قال مدحت:

- كنت سأخسر أنا وأنت ستربح.

ثم نظر إلى ساعته و قام بنداء النادل و حسابه و قال لجعفر :

- سأتركك الان فقد تأخر الوقت و يجب علىَّ أن أقوم باكرا للعمل؛ فأنا لست مثلك استيقظ عصرا، تصبح على خير.

و قبل أن يذهب قال له:

- وأنا أيضًا سأذهب للمنزل لكن لا أظن أننى سآتى غدا فلدى أشياء ضرورية سأشتريها.

عدت للمنزل لا يشغل تفكيرى إلا ما شاهدته على التلفاز و كلام مدحـــت عنه، الأمر مغرٍ للغاية أثناء صعودى سمعت صوت جارنا العجوز داخل شـــقته، تذكرت أنه عم عبدالمنعم، كان لديه شـــبه محل صغير على أول الشارع يبيع الصحف و الجرائد والكتب القديمة، لا يوجـــد أفضل منه ليدلنى على مكان تلك الكتب التى يســـتعين به السحرة، وليس ببعيد أن أجدها لديه أساســـا، طرقت بابه، أتانى صوته من خلف الباب ليجيب عجوز فى الثمانين من عمره لقد استغرق وقتا كثيرا ليفتح لى الباب، قال:

- من؟

أجبته بصوت هادئ:

- أنا جعفر.

قال:

- جعفر من؟

قلـــت له و أنا أحاول أن أصطنـــع على لهجتى الحاد ة من الأدب المطمئن:

- أنا ابن طاهر الذى يسكن فوقك يا عمى.

قال:

- ماذا تريد؟

قلت:

- فقط أريد أن أسألك عن أمر ما.

أجابنى:

- كم الساعة معك الآن يا بني؟

أجبته فى تلقائية:

- إنها الحادية عشرة مساءً.

قال بلهجة صارمة:

- اذهب الآن, فأنا لا أستقبل أحدا فى الوقت المتأخر هكذا, تعال فى الصباح باكرا.

فأجبته:

- تصبح على يا عم عبد المنعم.

قلتها و أنا أصعد على السلم و فتحت باب شقتي, كان أبى كعادته نائما, دخلت لغرفتى وخلعت ملابســـى ووقفت أمام

المرآة أحاول تقليد الساحر العظيم الذى رأيته فى التلفاز, أمسكت بمنديلى ووضعته بين يدى مثل ما كان يفعل ليخرج الطائر ولكن بالطبع لم يخرج أى طائر. لم أستطع النوم هذه الليلة, لا مشكلة فأنا بالأساس أود الذهاب لعمى عبد المنعم صباح باكرا. انتظرت بزوغ الشمس بفارغ الصبر, وطرقت الباب عليه، فتح لى، يتكئ على عكازه، بياض شعره يتحد مع رمادية عينيه فيعطى مظهره الكثير من الوقار رغم فقره وحالته المزرية فى منزله وثيابه، تلطفت بود وسلمت وسألت عن حاله، فرد السلام وحمد ربه ثم جلس على أقرب أريكة للباب وهو ينظر لى فى تساؤل! يبدو أنه لا يتذكر ليلة أمس؟! قلت له:

أنا جعفر ابن طاهر الساكن بالدور الذى يعلوك يا عمى.

تبسم وقال:

- كيف حالك وحال والدك؟

أخبرته أنه بخير و يوصل سلامه لك معى، وكما تعلمون والدى بالأساس لا يعلم أنى سآتى لعم عبد المنعم، ارتحت بعض الشيء لسؤاله، فهو يبدو أكثر هدوءًا من البارحة، دخلت فى لب بالموضوع:

- لقـــد كنت يا عم عبد المنعم تبيـــع الكتب والجرائد منذ زمن بعيد على الناصية أرجو منك إفادتى، أريد مكانا به أكبر عدد من الكتب القديمة.

وقبل أن يجيب ســـعل كثيرا وقمت لأحضر له الماء، شرب قليلا ثم قال:

الأماكن كثـــيرة يا بنى لكـــن مانوع الكتـــب التى تود شراءها ؟

أخبرته أنها كتب عن الســـحر وتعليمـــه وفكه والظواهر الخارقـــة وكنت حريصا فى كلامى على ألا أجعله يشـــك فى سوء نيتى لحاجتى لهذه الكتب، حيث غلفت طلبى بنكهة نهم العلم و الانبهار بالظواهر وطرق علاج الناس من السحر، نظر لـى وقد تأكدت أنه صدق حسن نيتى وقال وهو يشير إلى غرفة مغلقة على يساره :

- هنا ســـتجد كتباً لا حصر لها فى هذا المجال، احتفظت بها، فهى ثروة حقيقية، وعلم يجب توارثه.

تركته وهو مازال يثرثـــر وفتحت الغرفة وجدتها مكتظة بالفعل والـــتراب يكاد يطمس عناوينها، مـــددت يدى لواحد

منها، وفتحته، الأوراق صفراء، هذه كتب عتيقة بالفعل، أشعر أنى سأجد ضالتى هنا، أخترت مجموعة وأخذتها وخرجت من الغرفة وجدت عم عبد المنعم نائما على الأريكة، لم أوقظه وأغلقت الباب خلفى وغادرت.

صعدت لمنزلى وضعت الكتب بجوار السرير ورحت فى نوم عميق؛ فقد كنت مرهقا جدا لأنى لم أنم بالأمس ولم أستيقظ إلا الساعة العاشرة مساءً!

مددت يدى وفتحت عينى لأول كتاب بجوارى، كانت مقدمته ساحرة بالفعل :

«عند قراءتك لهذا الكتاب يجب أن تكون متأكدا أنك تريد أن تكون ساحرا وأن الأمر لا تراجع فيه وإلا ستكون العواقب وخيمة، وحذارى من الخطأ فهو غير مقبول أبدا، والموت أرحم من مصير فاعله، هل واثق من قبول تحالفك مع الشيطان؟ هل توافقك على كونك تابعا له فى الأرض وخليفة طوعه؟ إن كانت إجابتك القبول، فلتقلب الصفحة، وإن كانت الرفض فلترك الكتاب حالا».

ترددت بعض الشيء من كمية التحذيرات وسرت فى جسدى رجفة لكنى متخذ القرار، فلست انا من يراجع نفسه لتهديد

مثل هذا، ولن أنثنى عما أريد أبدا، وقلبت الصفحة، كان به تعريف للسحر واستعراض للقدرات المتمكنة به تجاوزت هذه السطور فأنا أريد الطُرق مباشرة، وصلت للصفحة الثامنة بعنوان : الطريقة الأولى، جملة أولى بها «عليك أن تعلم الآن أنك صرت بلا مشاعر أبدا، وأنك تستطيع فعليا عمل أى شيء فى أى شخص من أجل مصلحتك ونجاحك ولإثبات ولائنا المتبادل سيتعامل معك من العالم الآخر معاونون، فكما تعلم بالتأكيد لكل ساحر جنوده، ستعرف شخصياتهم فيما بعد، ولكن ستكون خادما لهم فى الخفاء وهم خدامك فى العلن، سيطلبون منك أمورا خفية وسينفذون لك أمورا علنية، هذه معادلة عادلة للغاية».

شعرت أن هذا الكتاب تحديدا يخاطبنى، تلاشت الرهبة والرجفة تماما، و تبسمت لأنى وجدت بالفعل ضالتى، والعجيب أنى حفظت كل كلمة قرأتها فيه دون أى مجهود لا أعلم صدقا هل السبب حماسى الشديد أم أنها خاصية متوالية للولاء والموافقة أن ينسخ فى عقلى محتوى الكتاب.

وبينما أنا فى حالتى هذه، انقطع التيار، وتوقف المذياع الذى يردد القرآن فى الخارج، انتفضت جسدى حين نظرت

للكتاب ووجدت الكلمات به مضيئة! توقف عقلى عن التفسير هذه الدقائق حال الانقطاع، لكن حين عاد التيار ألقى دماغى علىَّ سؤالا:

- هل ماحدث صدفة أم عقلى يصور لى هذا؟

يبدو أنى تأثرت بالفعل مما قرأت، سأقوم لإعداد كوب من الشاى ثم آتى لأكمل القراءة، فتحت غرفتى وخرجت متجها للمطبخ، سمعت صوت أنفاس خلفى، التفت فلم أجد شيئا!!

لمحت ظل أبى يمشى إلى غرفته، تبعته فتحت باب غرفة أبى فوجدته يغط فى نوم عميق، عدت للمطبخ وبرودة تسرى فى أوصالى، أغلقت النار ولم أكمل صنع الشاى وعدت لغرفتى ونمت، رأيت عم عبد المنعم يضحك ويقول لى :

- أنت لا تحتاج هذا الكتاب صدقنى، أنت تعديت مراحله بكثير، لذا اتركه ولا تتعجل ما سيحدث لك، أنت الشخص المختار منذ ولادتك، ومنذ طفولتك وأنت تثبت أنك ستتعدى من سبقوك فى هذا على مر العصور، بعد وقتٍ وفى اللحظة المناسبة التى أختارها أنا، سأبدأ

بتوجيهك والاتصال بك، أما الآن فلتعش حياتك بشكل طبيعى .

وفجأة تبدلت هيئة عـــم المنعم العجوز لهيئة كائن لم أره فى حياتى أبشـــع مخلوق واستيقظت، كان كابوسا مرعبان لكنى شـــعرت أنه واقع وحقيقى وكأنه كان أمامى بالفعل، أمســـكت الكتاب وفتحته من مكان مـــا توقفت عنده وكانت المفاجأة أن صفحـــات الكتاب بيضاء!! حتى ما قرأته بالأمس مُحى تماما، بحثت عـــن الكتب الأخرى لم أجدها !!

ركضت لأبى مسرعا وجدته يستعد للنزول للصلاة، سألته فى حدة اتهام :

- من الذى أخذ الكتب التى كانت بغرفتي؟

أجابنى:

- أنا لا أدخل غرفتك يا بنى بســـبب رائحة السجائر فأنت تعرف انزعاجى منها و...

وقبل أن يكمل ثرثرته أســـرعت وفتحت باب الشقة ونزلت لعم عبد المنعم وتبعنى أبى متعجبا طرقت الباب حتى كنت سأكســـره وأبى يحـــاول إيقافى، كدت أن أجـــرح يدى ومع

توســـلات أبى لى أن اهدأ توقفت، سألنى والدى:

- ماذا تريد يا بنى ؟

أخبرته:

- أريد عم عبد المنعم حالا.

ضرب يده كفا بكف وقال:

- يبدو أنـــك لاتعيش معنا! عم عبد المنعـــم انتقل للعالم الآخر يا ولـــدى منذ عامين!! ألا تذكـــر أنى ترجيتك للذهـــاب معى للعزاء؟ ورفضت أنـــت وذهبت للمقهى مع أصدقائـــك، على الرغم أنه رجل عجـــوز ولا أحد له.

ثم ســـحبنى من يـــدى وأنا فى ذهول لشـــقتنا وهو يكمل حديثه :

اتعلم ياجعفر أنى قد عشـــت هذا بعد وفاة والدتك أيضًا كنـــت أتخيلها مازالت حية، لكـــن العجيب أنى ظننتك بلا قلب!! فمنذ توفيت أمك بعد ولادتك بأشـــهر قليلة، وأنا من أعتنـــى بك وتوليت تربيتك لكنـــك كنت مثالا للجحود، لم أشـــعر يوما أنك مثل أى طفل عادى بك من البراءة مثل أقرانك، كانت نظراتك فجة وشيطانية، توقعت أنك حين

تكبر سينصلح حالك وتعى قدر البر والأدب، لكن الأمر كان يزداد مع ازدياد عمرك سوءًا، وخاصة أنى الآن عجوز وهن العظم منى، وأحتاج لشبابك سندا لى، لماذا يا ولدى نزعت الرحمة منك؟ أنا أحبك وأنت تعلم هذا لكنى لست راضيا عنك.

رمى جعفر والده بنظرات محتدة غاضبة، وصرح فى وجهه:

- كفاك محاضرات فى القيم والبر والتقوى هذا ليس وقتها أبدا، لقد سئمت نصائحك، ثم أنى تمنيت أن يكون لدى أبٌ ثرى لديه من الأموال الكثير لا يجعلنى أعانى، رجل، لا يقول لى كلما رآنى هذا حرام وهذا لا يصح،

لقد تربيت مع عجوز مقارب للأربعين لا يفعل شيئا سوى الصلاة والعبادة والرضى بالقليل، وانا لم أخلق لهذا.

وازدادت نظرات جعفر حدة وقال :

أتعلم؟ أنا لا أحبك ولم أحبك يوما، ولم أشعر تجاهك بأى شفقة أو حنان، تشفى أو تظل مريضا لا يهم فلتذهب للجحيم، أنا لا أب لى من اليوم، لا أريد مزيدا من هذا السخف.

***

كانت هذه الكلمات كفيلـــة بارتفاع ضغط طاهر وبدأت تصيبه نوبة سعال شـــديدة فأشار إلى دوائه ليناوله له جعفر، لكنه رماه بنظرة كره واستدار تاركا إياه خلفه، وعاد لغرفته وأمســـك بالكتاب ليجـــده مازال فارغا من الســـطور ممحو الكلمات، فأطلق ســـباباً، وشـــعر أن بداخله بركان غضب لا يقدر على إطفائـــه، فألقى بالكتاب علـــى الأرض وخرج من غرفته ليجـــد والده ملقى على الأرض لا يتحرك، اقترب منه وأمسك يده وتركها فســـقطت، وضع كفه أمام وجهه فلم يجد أى انفاس،

أمســـك ذراعه وضغط على عرقه فلم يجد أى نبض، لقد تأكد ان والده توفى، لكنه لم يتأثر أبدا، كان ما يسيطر عليه هو كلمات الكتاب التى محيت والكتب الأخرى التى اختفت؟! وكيف لا يتذكر موت عم عبد المنعم؟! لكنه هدأ نفسه قليلا أنه سيحل هذا اللغز بعد الانتهاء من جنازة والده ومراسم الدفن.

مرت الأيام ولم يجد جعفر بالفعل حلاً، ولا تفســـيرا للغز، وصارت حياته مابين منزلـــه والمقهى، لكن بعد عودة عمه من الخارج تغير الوضع ،فقد أتى عمه و زوجته وابنتهما الجميلة حســـناء لزيارته فى المنزل وقاموا بعزائه، قال له عمه:

- أكثر ما أحزننى يـــا جعفر هو عدم حضورى جنازة أخى ودفن طاهر فهـــو لم يكن أخى فقط بل كان أبى ومعلمى.

ثم أردف وهو يقاوم دموعه :

- إن والـــدك يا جعفـــر لا مثيل له، تبا للغربـــة التى تبعد الأشـــقاء عن بعضهم البعض.

لم يكـــن جعفر يهتم بالكلام الذى يقـــال عن والده فعيناه وفكره معلقان بحسناء، لقد لفت نظره جمالها الآخذ، تظاهر بالتأثر أمـــام عمه الذى أعطاه عنـــوان منزله الجديد الذى اســـتقر به بعد عودته من الخارج، وقال له :

- إن احتجتنى فى أى شيء فتعال فورا، البيت بيتك يا ابنى اعتبرنى والدك.

وبالفعل أصبح جعفر يتردد دوما على منزل عمه من أجل حسناء، لاحظ عمه من أحواله أنه بلا عمل، ونصحه بالبحث عن وظيفة، لكن يوســـف كعادته لم يهتم، كان يحاول دوما الحديث مع حسناء التى كانت لا تطيقه وقليلة الكلام جدا معـــه، لم ترتح له أبدا، و فى مرة ذهب فيها إليهم، طرق الباب ففتحت له حسناء وقالت:

– أبى غير موجود؟!

طلب منها جعفر الدخـــول، حاولت أن تفهمه أنه لا يصح وأنهـــا بمفردها، لكنه تجاهل هذا كله ودخل فقد كان يريد هذه الفرصة ليتحدث معها قال لها:

– منذ أول مرة رأيتك فيها وأنا لاأســـتطيع ســـوى التفكير فيك، ســـأتزوجك وسأطلبك من عمى.

أجابته وهى مرتبكة:

– لا أشـــعر بشـــيء تجاهك، بل على العكس لم أرتح لك أبدا دون سبب رغم أنك ابن عمى، رجاءً حاول نسيان أمر الزواج هذا؛ فنحن مختلفون تماما عن بعضنا البعض ثم إنك لا تصلى! أو لا تعمل ولا تفعل أى شـــيء هادف فى حياتك كيف ستتزوجني؟

قال لها منفعلا :

– سأعمل، سأفعل أى شيء فى حياتى لأنالك.

قاطعته:

- لكنـــى لا أريدك، لو سمحت ياجعفـــر لا تجعلنى أكون قاســـية معك أكثر من هذا.

نظر إليها فى تحدٍ، وهم بالخروج وقال:

- سأتزوجك صدقينى.

خرج سريعا، وفى اليوم التالى اتصل به عمه وطلب منه أن يأتـــى للمنزل، وعندما ذهب جعفر وجده غاضبا جدا وقال له مويخا بلهجة صارمة:

- كيف تدخل المنزل وحسناء بمفردها؟

رد جعفر بهدوء:

- أنا ابن عمها، وبالتأكيد أخاف عليها بشدة.

صرخ به عمه:

- وإن تغاضيت عن هذا لن أتغاضى عن ما قلته لها.

اعتدل جعفر ووضع عينه فى عين عمه وقال:

- أريد أن أتزوج من حسناء وأعدك أنى سأعتنى بها، أريدها يا عمى صدقنى لن تجد أفضل لها منى، فأنا لا أريد فتاة سواها، لقد أصبحت هى محور حياتى.

قاطعه عمه:

- حذارِ ياجعفر أن تفكر حتى فى هذا، فأنت لن تستطيع الزواج بها أبدا، محرمة عليك.

تعجب جعفر من كلام عمه، فأكمل عمه :

- إنها أختك يا ابنى ولا تجوز لك.

صرخ جعفر:

- لن أتحمل أن تكون لأحد غيرى.

استشاط عمه غضبا وقال :

- أنت جاااهل لا تفهم شيئا، إنها لا تطيقك، حتى أنى لم أقل لها إنك أخوها فى الرضاعة، كان هذا سبب رفضى، سأتعلل به لها إن كانت أخبرتنى أنها تميل لك، لكنها وبكل وضوح تحدثت معى أنها لا تريدك فلن أحتاج لإخبارها به، فلتنسَ هذا الأمر يابنى، ولتتقرب من الله أكثر فعلى ما يبدو أنك بعيد عنه كل البعد، ولا تأتِ هنا مرة أخرى إلا حين أتصل بك أنا لدعوتك.

خرج جعفر وهو لا يصدق ماسمعه، أن عمه وزوجته يشكلان عقبـــة كبيرة جدا فى طريق وصوله لحســـناء، لم يحمل هم رفض حسناء؛ فهو يثق فى قدرته على إقناعها، إذا لم يكن لها فى الدنيا أحد سواه، والتمعت الفكرة...

مر أسبوع وهو يخطط ماذا سيفعل، ثم اتصل بعمه وأخبره أنه اقتنع بكلامه ولم يعد يفكر فى الزواج من حسناء، وأخبره انه وجـــد وظيفة رغم أنه لم يكن يعمـــل، لكنه كان يريد أن يقنعه أنه تغير، ثم قام بدعوته للعشاء هو وزوجته فى منزله، رفض عمه العشاء وقال:

– سأكتفى بكوب من الشاى وسنأتى لك دون حسناء، فهى ستذهب لصديقاتها.

كان هـــذا مايريده جعفر بالضبط، فهو بالأســـاس كان يراقبها ويعلم أنها مدعوة هذا اليوم عند صديقتها، وفى اليوم المحدد توجه عمـــه وزوجته لمنزله، كان جعفر فى انتظارهما وفتـــح لهما الباب مبديا الفرحة، قال له عمه:

– أنا سعيد للغاية أنك تعمل الآن لقد أصبحت رجلا بحق.

تبســـم جعفر وهو يناوله قدح الشاى ويناول زوجته أيضا، ويقول:

- لقد أطعتك يا عمى فأنت مثل والدى فكيف لا أطيعك؟! لقد كنت لا أعمل سابقا من أجل الاعتناء به رحمه الله؛ فقد كان مريضا للغاية.

وتظاهر بالبكاء على والده، ربت العم على كتفه وقال :

- إن برك الشـــديد بوالـــدك هذا هو ماســـيجعل حياتك القادمـــة كلها خير.

بعد أن أنهى الشـــاى هو وزوجته، قام وصافح جعفر الذى أوصلهما للباب وأغلقه خلفهما و حدث نفســـه فى خبث:

«بعد ساعة من الآن ســـأنتظر اتصالا من حسناء لتبلغنى بالأمر، ولن يقف أحد معها ســـواى، لو كنت حســـن الحظ ســـينتهى الأمر، ولو كان الحظ حليفهم سيصابون فقط».

ترنحت رأس العم أثناء قيادته والرؤيا غير واضحة له، الأنوار بالشـــارع تتداخل بعضها فى بعض، بينما سقطت زوجته فى الكرسى المجاور له فى السيارة فى نوم عميق، وبالفعل اتصلت حسناء، كانت تصرخ وتنادى:

– جعفر جعفر انجدنى!!

وسقطت الســـماعة من يدها وأغلقت أنا الخط، وضحكت للذة الانتصار، وقلت الآن سأسرع لاحتويها، سأظفر بها، وفتح باب الشقة ليجد المرآة جذبته بسرعة داخل أحد كهوفها.

الكهف 20

مرحلة ما بعد العاشـــرة إلى العشرين، تحديدا كنت فى الخامســـة عشـــرة ســـن البلوغ والمراهقة وبداية وداع مرحلة الطفولـــة والبراءة، لكـــن مهلا! عن أى بـــراءة أتحدث؟ هذا المصطلـــح لم يمر على حياتـــى، كان الكل يقـــول لأبى أنى عفريت ويســـمونني الشـــيطان مما أفعله .

والآن أنا على مشـــارف الشـــباب، هذه الفترة أعتبرها من أجمل فترات حياتـــى، بدأت سماع الأغانـــى، وتغيرت نظرتى للبنات بعد أن كنت أفكر فقط فى مضايقتهن، صارت نظرتى لهـــن مختلفة تمامـــا، أميل كثيرا لهن ولأجســـادهن وأمور أخرى كثيرة اكتشـــفتها فطرتى فى طور النمو، بدايتى مع الســـجائر بعد أن قررت أن أقـــوم بالادخار من مصروفى حتى أســـتطيع توفير ثمن علبة سجائر محلية من التى كانت تباع عند عم عبد المنعم صاحب كشـــك الصحف على الناصية، لازلت أذكر عينه فى مرة وأنـــا أعطيه النقود ليناولنى علبة الســـجائر، نظر ليدى حينها، ثم سألنى فى ذعر:

– من طبع هذا الوشم على يدك؟

قلت له حينها:

– لا أتذكر ان احدا صنعه لى.

ناولنى علبة السجائر بيد مرتجفة وعينه تتفحص ملامحى وكأنه اول مرة يرانى، كنت أظل ساعات كثيرة بالشارع لأدخن سجائرى حتى لا يرانى أبى، فهو مثل أى أب لا يرغب أن يكون ابنه مدخنا، وخاصة أنه متديـــن ومحافظ إلى درجة كبيرة، ولكن بعد عودتى للمنزل سألته عن هذا الوشم قرب أصبعى، فأجاب أنى بالفعل ولدت به، دخلت غرفتى وخلدت إلى سريرى مبكرا هذه الليلة لأذهب فى الصباح إلى مدرستى الثانوية، لقد رأيت فى هذه الليلة فى منامى هذا الوشـــم على شيء كبير معلق كالجبل ورأيت حوله أشـــخاصا يجلســـون القرفصاء ينظرون إلى الأرض فى خشوع وعلى مؤخرة رأسهم كان الوشم منقوشـــا بشكله المربع، نجمة سداسية سوداء يتوسطها عينان حمراوتـــان كأعين الثعابين، دق جرس المنبه لينتشـــلنى من حلمى الرهيب، قفزت من ســـريرى وارتديت ملابسى العادية؛ فقد كنت لا ألتزم بالزى الرسمى للمدرسة كنوع من التمرد أنا ورفاقى وإثبات رجولتنا فى الاعتراض، لكن وأنا أقوم بغلق أزرار قميصى أمام المرآة حدث شـــيء غريب فالوشم فى الحلم كانت به العينـــان حمراوتين، فقد كان كبره بالحلم يفند

تفاصيله جدا، أمـــا على يدى فقد كنـــت أراه طوال الوقت أســـود، حتى أنى لم ألحظ أبدا احمرار العينين! إلا الآن، فقد التمعت العينان فى المرآة بوهج أحمر أضاء لثوانى بســـيطة!

أكملت ارتداء ملابســـى وذهبت إلى المدرســـة وجلست فى الصف الأخير من فصلـــى؛ فهو الصف المحبب لى؛ فقد كان يلقب بصف الفشلة والمشاغبين، كنت مع مجموعة أصدقائى الذين على شاكلتى نستفز المعلمين ونربكهم بمشاغباتنا، فلا يســـتطيعون التركيز فى الشرح، وقد كانوا بالفعل يخافون من ســـطوتنا، فى آخر هذا اليوم الدراســـى ونحن فى طريق العودة لمنازلنا قال ياســـر صديقى إنه يحلم أن يكون مصارعا وأنه يشاهد يوميا مباريات المصارعة الحرة وأن أمنيته وحلمه أن يكون بطلا بها، قلت له :

– ولمَ لا ؟ ما رأيك أن نفعلها ؟ نجهز الأمر مع باقى أصدقائنا، ونكون حلبة مصارعة فوق سطح منزل أى أحد منا ؟

ونظرت له فى تحدٍ يســـتفز رغبته فى حلمه جدا، نظر لى ياسر منبهرا بالفكرة ثم سرح قليلا وكأنه يتخيل ما سيحدث، ثم قال:

- موافق جدا، ســـأتحدث مع جاســـر وخالد وأجهز السطح عندى غدا فهو أوســـع من سطوح منازلكم وستكون حلبة رائعة.

تحمســـت للأمر جدا، وعدت لمنزلى اتخيل مباراة الغد وأنى ســـأكون بها البطل، ثم أتتنى فكرة ألا نذهب بالأساس غدا ونجعلها اليوم من شـــدة حماسى، وعندما التقيته قال لى:

- أبى اليوم سيســـافر ليلا، و لن نســـتطيع أن نفعلها، وهو متواجد اليوم يصعب جدا علينا الصعود، لكن غدا سيكون الأمر سهلا، لا نذهب إلى المدرسة صباحا، ونجتمع عندى على السطح، (ثم اردف) لا تقلق فقد جهزت الحبال لعمل الحلبة وسأركبها الليلة بعد سفره.

التقينـــا فى عصر اليوم الذى يســـبق اليـــوم المتفق عليه والحمـــاس يكاد يجعلنا نقفـــز قال خالد:

- ظللـــت طوال الليل أمـــس أتمرن بالأثقـــال من أجل أن أهزمكم.

ضحك جاسر وقال :

- مهما تدربتم فأنا من سيهزمكم بضخامة جسدى وطولى وقوتى.

نظرت إليهم حينها وانتبهت بالفعل أنى لست فى قوتهم ولا إمكانية أجسادهم النافرة بارزة العضلات فأنا أنحلهم وأقلهم وزنا، قطع حديثى مع نفسى صوت ياسر:

- وأنت يا جعفر كيف حضرت نفسك للصراع؟

قلت له بغرور شديد لأخفى هواجسى أنى اقل منهم :

- سترون ماذا سأفعل بكم جميعا، وحدثت نفسى من جديد «ذكاء عقلى سيغلب ضخامتهم».

أدرت حسابات عقلى بسرعة لأحلل نقاط ضعف كل منهم، خالد يتدرب فى صالة ألعاب والده وقوى بالفعل للغاية، وجاسر قوى لكنه بدين بعض الشيء، وياسر أقربهم إلى فى الحجم لكنه يفوقنى فى الطول، إذًا هو من سأختار مبارزته، يمكننى تعويض فرق الطول.

وفى الصباح أخذت حقيبتى ليظن أهلى أنى ذاهب إلى المدرسة، ثم ارتديت خاتمى الذى أهداه لى أبى وأنا صغير، إنه بالكاد يدخل أصبعى الصغير، لكن بالتأكيد سأحتاجه اليوم

بشكله المدبب هذا، ســـأحاول ان أخفيه عن عين جاسر وياسر وخالد ليكون آخر وســـيلة لـ في اللعب.

وصلت إلـ منزل ياسر كان ينتظر أسفله عند باب العمارة ومعه الباقون، نظر إلينـــا بتوجس واقترب منا كزعيم مافيا يعطـــى التعليمات لأفراد عصابته همس لنا قائلا: ســـنصعد إلـ السطح دون أن يسمعنا أحد من سكان المنزل، لقد أعددت الحبال وقمت بربطها جيدا لتكـــون حلبة، ثم لمعت عيناه فى سعادة وأكمل :

- سأكون فى أول جولة.

تدخلت حينها قائلا بسرعة قبل أن ينطق أحدهم ويحجز دوره معه:

- سألاعبك أنا (ثم اكملت وأنا ادعى الخوف من مواجهته) لكنى أخشاك لأنك أقوى وأطول منى.

رد هو بحماس:

- إذا أنا وجعفر أول مباراة.

ثم صعدنا بهدوء شـــديد لم يشـــعر بنا أحد، وعند بلوغنا الســـطح وجدنا ياســـر بالفعل قد أعد حلبة حقيقية رائعة،

وجرى إليها وخلع قميصه وكان يرتدى أسفله فانلة حمالات كالمصارعين تماما، وأخذ يجرى للإحماء مثل اللاعبين، كانت نظراتى تتفحص عضلاته القوية وعقلى يقارن ومخاوفى تزداد، فأنا بالفعل أضعف منه، وإن خسرت أمامه لن أستطيع التحدث معه وسيكسرنى، ويصبح متحكما فىَّ، يلقى أوامره علىَّ، نظرت لخاتمى المدبب بلمحة سريعة وأدرته بحيث يصبح الجزء المدبب به داخل كفى لا للخارج حتى يظهر من الخارج على شكل دبلة فقط، ودخلت إلى الحلبة وسط تصفيق خالد وجاسر اللذين كانا حكاما للمبارة بينى وبين ياسر الذى بالفعل بدأ بتسديد لكمة قوية من ياسر لى أطاحتنى أرضا وأخذ ياسر يحوم فى داخل الحلبة فخورا بإسقاطى، نهضت سريعا قبل أن ينتهى جاسر من العد للطرحة، فى عصبية منى تحسست أطراف أصابعى وخاتمى تمهيدا لاستخدامه وهجمت على ياسر فالتحمنا بقوة غير أنه صوب لى لكمة أخرى فابتعدت عنه بصعوبة وشعرت بالإهانة الشديدة، فقد كانت المبارزة بيننا عبارة عن هجومه علىَّ ومحاولات تفاديه منى حتى ضحك جاسر وخالد بصوت مستفز جدا، عندها وصل بى الغضب منتهاه، وشعرت بسخونة عالية جدا فى يدى نظرت لها، فوجدت العين فى الوشم محمرة كجمر مثلما

كانت تماما فى المرآة، فى هذه اللحظة كان ياســـر يلف يده على خصرى ليرفعنى ويطرحنى أرضا لكنه لم يســـتطع لأنى أمســـكت يده ولويتها خلفه بشـــحنة عجيبة سرت فى يدى، لقد انتابتنى قوة خارقة جعلتنـــى أطرحه أرضا وأنهال عليه باللكمات المتوالية على وجهه فى حالة من الهستريا ثم حملته وهو مترنح تماما لألقيه خارج الحلبة، والغريب أنى لم أشـــعر بثقلـــه مطلقا فطوحته بطول ذراعى، لكنى فوجئت أن رميتى له ألقت به من ســـورالمنور!! من الدور الخامس.

ركضنا جميعا أنا وجاســـر وخالد لنرى ماحدث لياســـر، وبالطبع كان ملقى على وجهه ورأســـه متهشـــمة بالكامل والدم ينزف منه فى كل مكان، لقد مات ياســـر، لحظات من الصمت الجماعى ألجمت أفواهنا الكارثة ونحن ننظر للجثة لم نستوعب بعد ماحدث، حتى قطع هذا الصمت صراخ جاسر موجها لى:

– ماذا فعلت!؟! لقد قتلته!! سنسجن جميعا.

أمـــا خالد فقد انفجر باكيا ولم يســـتطع كتمان صوت بكائه، أما أنا فقد تداركت الموقف ســـريعا، وقلت لهم سنهرب فورا، إن انتظرنا دقيقة سيخرج أحد سكان المنزل ليتفقد صوت

الارتطام الذى حدث حين سقط ياسر، أو ربما سمع أحدهم صوت بكاء خالد أو صريخ جاسر، وبالفعل، خرجنا من العمارة بين أعين المارة فى الشارع التى ماكانت تقصدنا لكننا كنا نشعر أن كل مار يترصد أدق حركة لنا، وبعد أن ابتعدنا عن الشارع ركضنا بكل طاقتنا لمنطقة خالية، وهنا توقف خالد وقال فى انهيار شديد:

- ماذا سنفعل الآن؟! ماحدث يفوق قدرتى على الاحتمال.

قلت لهم بهدوء:

- دعونا نتفق، نحن لم نر ياسر اليوم.

أمسك جاسر بياقة ملابسى وقال :

- لقد قتلته وتقول إننا لم نراه؟!

أجبته بحدة وأنا اسيطر على دفة الحديث بحزم:

- أجل، سننسى ماحدث تماما، بل سنلغى من ذاكرتنا هذا اليوم كله من الأساس، وإن نطق أحدكم سأخبر الجميع أنكم كنتم معى وأنكم من ألقيتموه، عليكم الاختيار، ننسى الأمر برمته؟ أو نسجن جميعا؟

ولم يكن أمامهم سوى الموافقة بعد تهديدى لهم، وبعد أسبوع وجدوا جثته التى دلتهم عليها القطط من تجمعها حوله ومواءها حتى انتبه الجيران لهذا فى الوقت الذى كان أبوه يبحث عنه فى الشوارع، والأغرب أن الشرطة لم تجد أى بصمات على جسد ياسر! حتى بعد تأكدهم انه سقط بفعل فاعل لم يمسكوا دليلا واحدا يشير له، فقد كان الاشتباه فى ضربه وإلقائه من الأعلى كبير جدا، كل شىء يشير لذلك، الكدمات من أثر اللكمات، ملابسه وحتى حبال الحلبة التى وجدوها.

انتهت هذه السنة الدراسية، وانتقل خالد وجاسر لمدرسة أخرى، فقد عانى الاثنان جدا نفسيا، وخاصة خالد، على الرغم من أنه كان أقوانا جسديا ألا أن قلبه بالفعل ضعيف!

أما جاسر فقد ابتعد عنا تماما لا يكلمنا ولا يريد أن يرانا، حتى أنى قابلته فى الطريق مرة فذهبت لأسلم عليه فتركنى ولم يصافحنى، لكنى رأيت ياسر ذات ليلة فى حلمى كان ينظر لى برعب يرتسم على كل ملامح وجهه، كان جالسا أمامى وأنا أقف مبتسما، قلت له :

- ظننت أنك مت سيفرح اصدقاؤنا كثيرا برؤيتك.

لكنه قال بصوت متقزز :

- لقد ذهبت لهم بالفعل قبلك وأخبرتهم بما عرفته عنك وطلبت منهم الابتعاد عنك، وحين استيقظت، وجدت المرآة أمامى تسحبنى لأصغر كهف فيها بسرعة لم تحدث من قبل.

الكهف 10

هذه المرة أجلس فى غرفتى وحولى أثاث لمنزل يبدو كبيرا بعض الشـــيء، أرتدى شورت قصيرا وأمســـك فى يدى دمية صغـــيرة وفى يدى الأخـــرى قلما أضعه داخل عـــين الدمية، لا شـــيء داخل عقلى الآن إلا أن أدمر هـــذه الدمية، أفكر فى إحراق شـــعرها أو وضعها تحت صنبور الماء الســـاخن، حتى عندمـــا تركت الدمية توجهـــت للحمام وأخـــذت زجاجات فارغة ملأتها بالماء، وذهبت لألقيها على المارة لتســـقط على أدمغتهم، هذا الأمر كان يســـبب لى السعادة العارمة وتزداد فرحتى حين يصرخ شـــخص من الضحايا تحت المنزل أكثر، يبدو هذا غريبا على طفل فى الخامســـة من عمره، لا أتذكر أمى ولا أراها، ســـأذهب للمدرسة لأول مرة هذا العام فقد قام أبى بتقديـــم أوراقى، الجمعة الماضية أخذنى أبى معه صباحا لصلاة الجمعة وأجلسنى بجواره لكنى قمت من جانبه وخرجت لألعب، لعبت بالكرة مع أولاد فى سنى وجدتهم، كنت أستمتع بعرقلتهم حين كانوا يركضـــون خلف الكرة، أحدهم كان يركض بقوة وحين عرقلته ارتطم بجدار مواجه فشجت رأسه وســـالت منها الدماء، لقد صرخ وبكـــى وجريت وأنا أضحك على منظره، عدت إلى المنزل وظللت جالسا على السلم أنتظر عودة أبى الذى تأخر؛ فقد كان يبحث عنى فى الشارع ويظن أنـــه فقدنى وعندما وجدتنى جالســـا قام بنهرى على تركى

له داخل المسجد و الاختفاء فجأة من الساحة التى كنت ألعب فيها أمام المسجد، لم يكن أبى يضربنى أبدا، حتى حين اكتشف ما فعلته على سطح منزلنا، فقد كانت جارتنا تربى الطيور، كنت أمسك أحد الدجاجات من رقبتها بيد واليد الأخرى أمسك منقارها حتى لا تصيح بشدة، وماهى إلا ثوانى وتلفظ أنفاسها وأنزل إلى بيتنا منتشياً من السعادة، لم أكن أخاف أو أهاب أى شيء، كنت أسمع جارتنا وهى تتحدث عن تعجبها من اختناق الطيور، وفى يوم من الأيام كانت الجارة تجلس على سطوح المنزل ولكنى لم أرها فقد تخفت لتراقب طيورها، لم تكن تتوقع أنى من أفعل هذا!!

ذهبت إلى أبى وأخبرته أجلسنى أبى أمامه وقام بتوبيخى لكنه كما سبق وقلت لكم، لم يضربنى أبدا، ولكن توبيخه لى لم يكن يهمنى على الإطلاق؛ فداخلى كان يرفض سماع نصحه، لقد كان هناك صوت يوجهنى دائما لفعل هذه الأمور، ولا أعلم هل كان صوت انسان أم ماذا؟!

وعندما وصلت للعاشرة من عمرى كان الأمر مختلفا عما كنت عليه فى الخامسة، كنت متفوقا على أقرانى جميعا بذكائى الخارق، لكنى كنت أكره التعليم جدا، مع أنى كنت أحب الذهاب للمدرسة فهناك الكثير لأفعله بها من

لعب ومشاكسات وبالطبع يختلف لعبى عن لعب الباقين جدا، أذكر يوما وأنا فى الاستراحة بين الحصص تحججت لصديقى معتز، الذى كنت أذهب معه إلى الساحة للعب، أنى مريض، ولن أستطيع فعل هذا اليوم فنزل هو ليلعب وتركنى، وحين تأكدت من نزوله فتحت حقيبة المدرسة وأخرجت دفتره وقطعت منه صفحة الواجبات التى تخص المادة للحصة القادمة بعد الاستراحة، كان يجب أن تروا وجهه وهو يفتحه وينظر فيه ويقلب صفحاته يكاد يجن، ظللت أكتم ضحكاتى طوال الحصة حتى انتهت، وفى اليوم الذى يليه قررت فعل شيء مختلف، قبل ذهابى إلى المدرسة دخلت المطبخ وأخذت علبة كبريت ودسستها فى حقيبتى، وعند انتهاء اليوم الدراسى وأثناء عودتنا للبيت معا، فقد كان يسكن فى الشارع الذى يلينا، أبطأت قليلا خلفه ثم أشعلت العديد من أعواد الثقاب ورميتها بداخل حقيبته التى يحملها على ظهره بعد دقائق كانت حقيبته تشتعل على ظهره، ولم يستطع خلعها بسهولته من الصدمة واحترق جلده بعد اشتعال قميصه وجزء من شعره فى مؤخرة رأسه.

أما فى المنزل فقد كان أبى يحاول المذاكرة لى، ولكنى بالطبع لم أكن أركز فيما يقوله؛ فقد كنت أكره الدراسة

جدا، ولم يكتفِ أبى بالمدرسة، بل كان يرسلنى للمسجد لأحفظ القرآن، الغريب أنى لم استطع حفظ آية واحدة، والأغرب أنه كانت تنتابنى حالة غريبة لا تفسير لها فور ذهابى للمسجد والجلوس فيه مع الشيخ ومجموعة من الأطفال، وعند بدء التلاوة أسمع صوتا قويا فى أذنى يصمنى تماما فأعجز عن السمع!!

وعندما كان أبى يحضر ليأخذنى يتوقف الصوت ويعود سمعى جيدا حتى توقف أبى عن إرسالى للمسجد بعد أن وجد أنى لا أستفيد، ولم أحفظ، وبالطبع لم أخبره بأمر الصوت الغريب، كنت سعيدا أنى تخلصت من عناء الذهاب للمسجد، حتى ألعب لعبتى المفضلة، وأخاطب نفسى فى المرآة، وقفت أمامها بالفعل، وبدأت اتخيل أن صورتى فيها هى آخر وأنا أوبخه وأسبه، لكن، سحبتنى لداخلها!

الكهف صفر

كان طاهر يجرى مسرعا يحاول اللحاق بشباك تذاكر القطار، ليصل سريعا بعد أن أتاه اتصال يخبره بدخول زوجته هاجر إلى المستشفى لتضع مولودها الأول، يسابق الزمن ليختصر الثوانى، يود لو ينقله بساط الريح، ويكاد ينفخ فى قضبان الحديد ليسرع القطار أكثر، وتلتهم عينه كل متر قادم فى الطريق وكأنه يحفزه أن يمر، خصوصا أن المسافة من الصعيد للقاهرة ليست قصيرة، يلصق وجهه فى نافذة القطار لعل بعضا من علامات الوصول تترائى له، تتكثف أبخرة تنفسه على الزجاج وهو يتمتم بكل مايتذكره من آيات القرآن الكريم، ويلهج تارة أخرى بالدعاء ليكون كل شىء على مايرام، وضع جبينه مستندا برأسه على الكرسى المقابل أمامه ثم أخذ يسترجع شريط ذكرياته، فقره وأسرته البسيطة، تعلمه القرآن فى سن العاشرة، ونبوغه وتفوقه فى الكتّاب، دخوله الإبتدائية وتفوقه وخروجه من المدرسة لعدم قدرة والده على دفع مصاريف تعليمه، وكيف كان عمله فى الحقول شاقا، وكيف كان يصر على الادخار من أُجرته ليجمع مصاريف زواجه، وبحثه عن فتاة ترضى بالقليل، حتى وجد هاجر، لم تكن تتمتع بجمال كبير لكن على قدر كبير من الأدب والخُلق، تزوجها سريعا؛ فلم يكن لأهلها أى شروط، حتى أنه تزوجها فى مسكن أهله، كان

صلاحها فألا حسنا عليه بقدم سعدهما؛ فقد كان أخوه يعمل بالقاهرة فى شركة تشييد وبناء، فدل طاهر عليها بعد أن طلب صاحب الشركة من الأخ عمالا جددا لكثرة المشروعات التى تعاقدت عليها الشركة، ولم يشترط الحصول على مؤهل عالٍ، وهذه النقطة بالذات كانت هى من تمنع طاهر من التوظيف رغم أمانته ومهارته فى مختلف المجالات، أفاقه من ذكرياته صوت صرير عجلات القطار متوقفا فى محطة، ود لو كانت محطته تلك، قلبه سيقفز من صدره خوفا، فقد كان حملها ليس سهلا أبدا، ثلاث سنوات بعد عمله فى القاهرة، مرت بصعوبة شاقة استطاع خلالها امتلاك شقة مستقلة له ولزوجته، كان عقله يمر فى طيف هذه السنوات يضع رأسه على الوسادة حالما ببشارة حمل زوجته، ولا جدوى، حتى دب القلق من استحالة الحدوث، ودفعهم هذا الهاجس لعمل الفحوصات الطبية وظهرت النتائج كلها بسلامتهم واستطاعتهم الإنجاب، وأن التأخير هذا إرادة الله وعليهم الصبر، وتمر سنة وراء سنة والحزن يلتهم أكثر، حتى مع الرضى بالقدر كانت نفوسهم تشتاق، وعلى هذه الحال سبع سنوات أخرى عجاف قاحلات، لا شىء جديد يحدث سوى التجلد والمواساة لبعضهما البعض خلال عشر سنوات، ربما كان حالهم فى الثلاث الأولى منها أفضل، فقد كان بعض

الأمل مازال مشـــرقا، أما السبع الأخيرة فكانت بالفعل قاتمة كعجوز فقدت القدرة علـــى الحركة وصارت عينها ذابلة لا تنظر لمســـاحة أى حلم قادم ســـوى الخلاص بمرور الوقت، لم تســـتطع هاجر رؤية زوجها هكذا، فطلبت منه الزواج بأخرى لكنه رفض بشدة وقال:

- أنـــت بجانبى فـــى كل مضايق حياتى، ثـــم إننا لا نعلم المســـتقبل ياعزيزتى، تخيلى لو تزوجت وأيضا لك يكتب لى الإنجاب!! ماذا ســـأفعل وقتها؟؟

قالت: جرب، صدقنى لن أحزن.

و اقتربت منه وضمته، فقال لها ممازحا :

- هـــل أصبتِ بالملل وتريدين التخلص مني؟ هذا لن يحدث، ســـأظل معك حتى ألفظ أنفاســـى الأخـــيرة، ثم أنك أصبحت ثرثارة جدا وأنا أريد تناول عشـــائى.

ضحكت فى دلال وقالت:

- دقائق يا حبيبى ويكون العشـــاء جاهزا، رباه كيف يكون هذا الحب كلـــه بين اثنين ولا ينجبان!

حقا هى الدنيا ســـتظل ناقصة لتكتمل السعادة فقط فى الجنـــة، كان طاهر يعلم جيدا أن قلبـــه لن يتقبل أنثى غير هاجـــر، هذه الحياة المنظمة حتى لو كانت بســـيطة هى من إدارتهـــا وارتواء صدره المثلج بزوجة مثالية مثلها، وجودها فى حياته يعطيـــه الراحة، فقط لو ينجب!!

فقط لو تداعب صدره أنامل طفل من صلبه ينسيه مشقة مكابدة العمل! ويملأ فورة تمنى حلم الأبوة، نجاحه فى عمله كان يهـــون عليهما قليلا، خاصة أن صاحب العمل كان يثق به جدا، ويعتمد عليه جـــدا، خاصة بعد أن ترك أخوه العمل للحاق بشـــركة أخرى، فكان لطاهر نصيب الأســـد كاملا، هذا جعله يسافر كثيرا وخاصة للقاهرة والإسكندرية، مازال يذكر يوم عاد مرة من السفر فلم يجد هاجر فى انتظاره عند الباب كعادتها، دلف للمنزل قلقا ينادى عليها فى كل أنحاء المنزل حتى دخل غرفة نومهما فوجدها تقف عند ســـريرها، ووجهها عليه تعابير غريبة سألها:

– مابك؟

اجابتـــه عيناها بدموع غزيرة جعلته يضمها وتســـرى فى عروقه قشعريرة بزوغ شعاع أمل ليتشجع ويسألها مرة أخرى:

– مابك؟

فتسحب كف يده لتضعه على بطنها وتقول:

– هنا ابننا جعفر، سنسميه على اسم والدك.

لم يستوعب حينها الأمر جيدا من شدة المفاجأة، كل ما شعر أنه ما يريد فعله هو السجود، فخر على الأرض يلهث بالحمد والشكر.

تنهد طاهر، ونظر إلى النافذة، القاهرة تقترب، دعا الله أن لا تلد هاجر إلا بعد وصوله وفى أثناء حضوره.

وصل طاهر إلى المشفى، جرى مسرعا إلى الطابق الذى به زوجته وهو يلهث من الركض على سلالم المشفى وجد الممرضة أمامه، سألها : أين هاجر؟

طمأنته قائلة : أنها ستدخل غرفة العمليات بعد ساعة فالطبيب استنفذ وسائل جعل الولادة طبيعية، لكن أعتذر لك لا يمكنك رؤيتها الآن فهى تتجهز للعمليات.

جلس طاهر فى زاوية الرواق، ساعة دقائقها ثقيلة للغاية تمر على دماغه كل ثانية فيها كجبال، رأى الطبيب قادما من أول الرواق، فنهض مسرعا وأمسك ذراعه متوسلا:

– أريد رؤيتها فقط دقيقة.

نظر الطبيب لعينه بحنان وسأله:

– هل انت زوجها؟

أجابه طاهر بحركة رأسه:

أى نعم، اســـترح يا طاهر على المقعد هذا إلى أن تخرج من العمليات صدقنى سأجعلك تراها.

ألقى طاهر بجســـده المنهك على المقعـــد، يكاد يهوى من التعب، تعب التوتر، تعب القلق، والسفر، والخوف حد الغصة، بالإضافة أنه بالأســـاس لم يذق طعـــم النوم ليومين ماضيين بسبب عمله الشاق.

وفـــى هذه اللحظة، كان لابد أن ينجيه عقله من الانهيار بالنعاس، غط طاهر دقائق فى النوم العميق، فى هذه الدقائق مر شـــريط عمر جعفر المنتظر أمامه، .رأى كل أحداث حياة ابنه، منذ المرآة الأولى وكهوف عمره بمراحله كلها، انتفض طاهر مرتجفا من لمســـة يد الممرضة لكتفـــه، توقظه بعد أن سألته:

هل أنت زوج هاجر؟

شعر طاهر أنه نام سنوات عديدة واستجمع قوة النطق فى لسانه و أجابها:

– نعم.

فنظرت إلى الأرض ثم أخبرته بضرورة قيامه معها ودخوله إلى غرفـــة العمليات، دلف طاهر لغرفة العمليات وكل خطوة فى قدمه تتمنى التراجع هلعا، وجد الطبيب فى انتظاره،

وضع الطبيب ذراعه حول طاهر، وبدت نبرة صوته معتذرة وهو يقول :

– كانت الحالة فى غاية الصعوبة كادت زوجتك أن تفارق الحياة لكننا أنقذناها، ولكن...

وهنا تسارع نبض طاهر للدرجة التى كادت ضلوعه تتفجر من قرع فؤاده بينها ،واكمل الطبيب:

– ولكن فقدنا الجنين فقد أخرجناه من أحشاء الأم ميتا.

استجمع طاهر بأسه وسأل الطبيب:

ماذا كان جنس المولود؟

قال الطبيب :

– ذكر .

تنهـــد طاهر وطلب رؤية هاجر، أدخلـــه لها، وجدها تبكى ومازال التخديـــر يضعها تحت تأثيره.

فقط دموع تتساقط على جانبى راسها، والكثير من الدماء على الفـــراش، والمحاليل تخترق يدهـــا الضعيفة، ظل طاهر يســـترجع بجوارها الحلـــم الذى رآه، وكأنـــه يتصبر به، بل ويرتب أفكاره ليصبر أيضًا زوجته بهذا الحلم، أفاقت هاجر من المخـــدر، واول مافتحت عينها نظرت إليه وقالت:

– لقد فقدناه.

وضع يده بلطف على شـــفاهها الرقيقة وقال: وإن لم يكن، لكنت فعلتها بيدى.

الكنزي
ALKANZY